رواية

خوليو ياماثاريس

طرائق مختلفة للنظر إلى الماء

ترجمة وتقديم:

د. طلعت شاهين

صفحة 7

أفنيت عمري في العمل من أجل العودة.

أنخيل فيرو-كاتب مكسيكي

تقديم

نظرًا إلى العوامل الجغرافيّة والمناخيّة لشبه الجزيرة الإيبيريّة (إسبانيا والبرتغال)، وندرة الأنهار التي تغذّي سكّانها بالمياه، وهي أنهار صغيرة المجرى وبعضُها ذات مجارٍ عميقةٍ إلى حدّ يحول دون استخراج المياه أو يجعل ذلك صعبًا للغاية، ونظرًا أيضًا إلى أنّ تلك الأنهار تُغذّيها مصادر خاضعة لتقلّبات المناخ، منها ذوبان الثلوج التي تتجمّع على بعض القمم العالية للجبال، وهو أمر يخضع لأهواء الطبيعة، ويجعل البلاد مُهدّدةً بالقحط في حال انخفاض معدّل سقوط الجليد على تلك القمم الجبليّة، مثلما هي مُهدّدة بفيضانات تُغرق حقولها وقُراها وتسبّب لسكّانها خسائرَ فادحةً. نظرًا إلى كلّ ذلك، اهتمّت إسبانيا منذ زمن قديم بمشروعات تنمية المياه على امتداد مجالها الجغرافيّ الواسع. ويذكر التاريخ أنّ الرومان إبّان احتلالهم إيّاها أنشؤوا فيها العديد من المشروعات لنقل المياه من مكان إلى آخر، ولا تزال الشواهدَ على ذلك قائمة حتّى اليوم، ومنها مجرى الماء المُقام في سيجوبيا لنقل المياه من طرف الوادي العميق إلى الطرف المقابل، وكذلك العديد

من القناطر التي أقيمت في الوديان العميقة.

ثم جاء العرب من بعد الرومان فنقلوا خبرتهم في الزراعة باعتماد الريّ الدائم واستخدموا تقنيات الريّ المُستجلبة من البلاد الزراعيّة للمسلمين مثل مصر والشام. وآثار تلك التقنيات أيضًا ما تزال موجودة، لا سيّما في مناطق السهول الواقعة على البحر المتوسّط. ولقد عرف العرب قوانين توزيع المياه بين المزارعين وطبّقوها، وخير شاهد على ذلك اليوم «محكمة المياه» التي تقام رمزيًا، في الساعة الثانية عشر من كل يوم خميس -عدا أيّام الأعياد والعطلات الرسميّة- أمام برج كاتدرائيّة «الميجيليتي» في فالنسيا.

وفي العصر الحديث استمرّت السياسات الرامية إلى توفير المياه، فبدأ مسار التوسّع في إقامة السدود بخطّة عامّة وضعتها حكومة البلاد في العام 1902، ثم جاءت من بعدها خطّة عام 1936 التي اعتمدت تقنيات أحدث تمّ وفقها إنشاء السدود في الوديان العميقة للمناطق الممطرة، فكان يُشيَّد بناء شاهق بين الجبلين اللذين يتقاربان عند نهاية كل وادي، يحتجز خلفه مياه الأمطار في مواسم غزارتها. ويجري التحكّم في تلك المياه من خلال فتحات بجسم السدّ، نُصِبت من خلفها توربينات لتوليد الطاقة الكهربائيّة، تُتيح مرور كميّة كافية لريّ الأراضي المحيطة.

وجاء بعد ذلك نظام الدكتاتور الجنرال فرانكو فاعتمد خطّة دعائيّة ضخمة استغلّ فيها إقامة مثل تلك السدود وخزّانات المياه

بوصفِها مشروعات قوميّة، لكنّ هذا التوسّع الكبير في إنشاء خزّانات المياه كانت له آثاره السلبيّة اجتماعيًّا، فالكثير من تلك السدود حجزت المياه من خلفها في وديان عميقة بها العديد من القرى، ما أدّى إلى إغراقها وتهجير سكّانها قسرًا إلى مناطق السهول البعيدة عن الخزّانات، بعد أن وضعت الدولة يدها عليها مقابل أموالٍ زهيدةٍ لا تكفي لإقامة حياةٍ جديدةٍ في الأماكن الأخرى، وهي أماكن تختلف جغرافيًّا ومناخيًّا عن القرى الغارقة. وهكذا تشتّت شمل سُكّان القرى الغرِقَة بعد اجتثاثهم من جذورهم، ومُقامات أسلافهم، حتّى إنّ الكثير منهم لم يجدوا الوقت والمال الكافييْن لنقل قبور آبائهم وأجدادهم، وكان من مُخلّفات ذلك أن أُصيب مُعظم سكّان تلك القرى بما يشبه الفصام، لاسيّما كبار السنّ منهم.

وبطبيعة الحال تطرّقت بعض الكتابات الأدبيّة إلى ذاك الواقع الجديد وآثاره في سُكّان القرى القديمة الراقدة تحت مياه تلك الخزّانات، ومن أهمّ الكُتّاب الذين خاضوا في ذلك الشاعر والروائيّ خوليو ياماثاريس، فقد كتب أوّلاً عن اندثار القُرى بسبب هجرة سكّانها إلى المدن بحثًا عن حياة أكثر رفاهية، وتُعدّ روايته «المطر الأصفر» التي ترجمناها قبل أكثر من ثلاثين عامًا نموذجًا حيًّا لتخليد تلك القرى المندثرة، ثمّ جاءت روايته الأخيرة «طرائق أخرى للنظر إلى الماء» لتُبرز أثر السدود

والخزّانات المائيّة في سُكّان القرى القديمة التي أغرقتها تلك الخزّانات.

والملحوظ في رواية «طرائق أخرى للنظر إلى الماء» أنّها مختلفة في تقنية كتابتها عمّا كتبه خوليو ياماثاريس من قبل، ولعلّ اختياره أن يُسلّط الضوء على حياة عائلة من تلك العوائل التي هُجّرت من أرض أجدادها تمهيدًا لإقامة خزّان مياه، وأن يُسجّلَ ذاك الواقع بعد عشرات السنين من الحدث، ألزمه البحث عن تقنية تُقدّم رؤية الأجيال المختلفة من تلك العائلة، وموقفَها من المشروع الضخم الذي أثّر في مجرى حياتهم حتّى الجيل الثالث. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجدّ «دمينجو» ربّ الأسرة قرّر التزام الصمت وعدم الحديث عن قريته القديمة، وفوق ذلك امتنع عن زيارتها أو بالأحرى زيارة بقاياها التي كانت تُعاود الظهور عقِب كلّ انخفاضٍ لمياه خزّان السد، وتصبح مزارًا جاذبًا لسُكّانها القدامى، فيصطحبون أبناءهم وأحفادهم لرؤية أطلالها، وينتهزون الفرصة ليحكوا لهم حكايات تعود إلى الزمن القديم عندما كانت حياتهم فيها مستقرّة. ولكَم كان مُفاجئًا أن أوصى الجدّ عائلته بدفنه في مسقط رأسه، وهو أمر بات مُستحيلاً مُنذُ غَرَقِ مقابر الأسرة التي تضمّ رُفات أفرادها الراحلين جميعًا حتّى الابن البكر الذي مات في طفولته. ولتحقيق أمنية الجدّ وقع اللجوء إلى طقسٍ جديد انتشر مؤخّرًا في العديد من بلاد العالم

ومن ضمنها إسبانيا، فأُحرقت جثّته ونُثِر رماده على سطح مياه بحيرة الخزّان.

ومن خطّة تحقيق أمنية الجدّ وتنفيذ وصيّته تبدأ حكاية القرية الغارقة تحت سطح الماء منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، وتبدأ أيضًا رواية مأساة سكّانها، وأوّلهم الجدّة رفيقة درب الجدّ التي عاشت حياتها كلّها في القرية ولم تخرج منها إلّا لأسباب قاهرة. واللافت من أمرها أنّها رغم تديّنها قبلت بإحراق جثّة الجدّ تنفيذًا لوصيّته، حتّى يعود وتستقرّ روحه التي هامت خلال حياته بعيدًا عن مسقط رأسه.

تُستَهَلُّ الرواية إذن بمشهد تجمّع الأسرة لوداع الجدّ دومينجو قبل أن يرقد رماده إلى الأبد في قاع بحيرة الخزّان الذي كان سببًا في تهجيره من المكان قسرًا. ابنته الكبرى تحمل «القارورة الجنائزية» على شاطئ بحيرة الخزّان الأقرب من قريتهم الغارقة، والصمت المُطبق يدفع كل شخصيّة إلى التفكير والتأمل وتقديم وجهة نظرها في الواقع الناتج عن تهجير قسريّ طبع حياتهم جميعًا، فتقصّ الحكاية من وجهة نظرها، لكن تظلّ القرية النائمة تحت سطح مياه البحيرة وعودة الجدّ إليها في قارورة جنائزية مركز تلك الحكاية، حكاية يشارك الجميع في روايتها، بدءًا من الجدّة، رفيقة الحياة، مرورًا بالابنة الكبرى والأخ الأكبر، وصولاً إلى الأحفاد والحفيدات، بل إنّ المشاركة في تقديم وجهات النظر

شملت أيضًا طليق الابنة الكبرى، وخطيبة أحد الأحفاد، وهي أجنبيّة إيطالية الجنسية، تابعت ما يحدث من احتفال طقسي بدا لها غريبًا، لكنّها ربطته أيضًا بواحد من أفراد عائلته في إيطاليا قرّر العودة إلى قريته على طريقة الجدّ نفسها.

ولقد قُسِمت الرواية سبعة عشر فصلاً، فحمل كلّ من الستّة عشر الأولى اسم الشخصيّة الراوية عنوانًا، وخُصّص الفصل الأخير لتعاليق على المشهد من قبل سائقي السيّارات المارّة بالمكان لحظة تنفيذ وصيّة الجدّ. ومن الفصل الأوّل حتّى الفصل الأخير يمكننا أن نُتابع وهج الذكريات القديمة، ثمّ خفوته بعد ابتعاد الشخص عن القرية إمّا لقلّة ذكرياته فيها، ويشمل ذلك بعض الأبناء الذين وُلدوا على أرضها لكنّهم غادروها صغارًا فاختلطت ذكرياتهم المُتعلّقة بعيشهم هناك بذكريات أخرى محورها القرية التي نشأوا فيها، أو لانعدام تلك الذكريات أصلاً كما هو حال الأحفاد الذين وُلدوا في أماكن بعيدة ولم يعيشوا لحظة التهجير الإجباري والنزع من الجذور. وهكذا يتمّ التدرّج في عرض المشاعر تجاه القرى الغارقة ومشروعات خزّانات المياه لتصبح المسألة في النهاية مجرّد وجهة نظر في ما جرى، ويتغيّر الأمر من الارتباط الكامل بالمكان والتألّم لفراقه، والبكاء على ذكريات الحياة هناك كما في حالة الجدّة وأكبر الأبناء، إلى مجرّد حنين لبعض ذكريات الطفولة يُخالج الشخصيّات التي خرجت من مسقط

رأسها مبكّرًا وارتبطت منذئذ بمكان حياتها الجديد، أمّا الشخصيّات التي وُلدت ونشأت بعيدًا ولا تعرف عن المكان سوى ما سمعته من حكايات الآباء والجدّ والجدّة فإنّ ردود أفعالها بلغت من الفتور حدّ اللامبالاة. وفي النهاية هناك تعاليق سائقي السيّارات المارّة وردود أفعالهم تجاه مشهد العائلة الجنائزيّ بوصفه جزءًا من زيارة سياحيّة يقوم بها غرباء لمجرد الاستمتاع بمشهد الطبيعة الخلّابة التي تحيط بخزّان مياه السدّ.

فيرخينيا

عندما وصلنا إلى البحيرة، مكان إقامتنا الجديد بعد التهجير، كانت القرية غير مبنيّة، ولا تزال على هيئة بضعة أكواخ تبدو كرسوم في السهل المنبسط، فاحتمينا بها. ثمّ تقاطرت علينا خمس عشرة عائلةً، أو ربّما هي عشرون، وشاركتنا ذلك. لقد قدِمت تلك العائلات من أماكن مختلفة أغرقتها مياه خزّانات سدودٍ مثل التي أغرقت قريتنا، وهكذا انتقلنا جميعًا إلى السهل المترامي الذي كان حتّى ذلك الوقت برّيًا وقاحلاً.

جئنا لنزرع، هذا هو الهدف بالطبع، جئنا نحمل متاعنا القليل وبعض الأثاث في الشاحنة نفسها التي نقلت حيواناتنا، وهي كلّ ممتلكاتنا في الحياة، ومنها بقرتان لاستخدامهما في حرث الهكتارات الستّة التي أصبحت من نصيبنا طبقا لعقدٍ سلّمه لنا المهندسون قبل بداية انتقالنا من أرضنا، حين بدأت تتلوّن بألوان ما جاؤوا به من جِوالات قديمة تراصّت وامتدّت أمام أعيننا حتى سدّت الأفق.

كانت البدايات صعبةً وكئيبةً جدًّا. أقمنا في أحد الأكواخ مع

أربع عائلات أخرى جاءت مثلنا من مكان بعيد (إحداها من محافظة «جوادالاخارا»، والبقيّة من قريةٍ في «ثامورا» قريبًا من حدود البرتغال)، شرعنا نزرع الأرض وبدأنا حياةً جديدةً في ذلك المكان. وماذا كان سيفيدنا تذكّر الأراضي الخضراء في قريتنا القديمة «فيريراس»، والجداول والزراعات القريبة من النهر، والمراعي الممتدّة على سفوح الجبال التي نصعد إليها مع أغنامنا صيفًا، ومن هناك نتأمّل مزارع العنب البيضاء الرائعة المحيطة بوديان القرية، فتبدو لنا صغيرةً جدًّا، وكامنة في أعماق الوادي، حيث يوجد النهر الذي ينتهي عندها؟ ماذا سيُفيدنا ذلك وكلّ ما أصبح لدينا لا يزيد عن هذا: ستّة هكتارات من الأراضي المنبسطة مثل المسطّح الذي ننشر عليه ما يتبقّى لنا من الفاكهة بعد تغذية الأطفال الأربعة، الأطفال الذين كانوا ما يزالون صغارًا على العمل في الحقل.

«تريسا» وهي أكبرهم سنًّا لم يكن عمرها وقتئذ قد تعدّى السادسة عشرة. ولقد بدت أكثرهم انزعاجًا من ترك بيتنا هناك وسكّان «فيريراس» إلى الأبد، لأنّها في سنّها ذاك كانت أيضًا أكثرهم وعيًا بما جرى. أمّا «خوسيه أنطونيو»، و«فيرخينيا»، وهي الأصغر سنًّا، فقد بكيَا عندما غادرنا القرية وظلاّ صامتين أيّامًا عديدة بعد ذلك من فرط ما صدمتهما عزلة المكان الذي ذهبنا للإقامة فيه، لكنّهما سرعان ما تعوّدا عليه ونسيا «فيريراس»، ولو

بصفة غير تامّة، المهمّ أنّهما لم يعودا إلى تذكّرها كموطن، والأمر نفسه حدث مع أجوستين. وفي ما يخصّنا أنا ووالدهم جرت الأمور عكس ما توقّعناه، فكنّا (مثلنا مثل المقيمين الآخرين) كلّما مرّ الوقت زاد حنيننا إلى القرية القديمة وإلى الجبال المحيطة بها. إنّها الجبال نفسها التي أتأمّلها الآن مرّة أخرى، لكنّها اختلفت عمّا كانت عليه بأن أصبحت مُحاطة ببحيرة واسعة جدًّا هي خزّان الماء الذي ترقد تحته كلّ تلك الأماكن.

لم يرغب دومينجو قطّ في العودة لرؤيتها خلال حياته. وخلافًا لبعض جيراننا ممّن أقاموا في البحيرة مثلنا ثمّ ذهبوا بعيدًا، حتّى إلى خارج إسبانيا، هو لم يرغب قطّ في العودة، ولم يسمح لأبنائنا بأن يأتوا به إلى هنا كما فعلوا معي في بعض الأحيان. كان يلبث وحيدًا في بيت المسنّين -وقبلئذ- في بيتنا بالبحيرة. وعند عودتنا لم يكن يهتمّ فيسألنا عمّا رأيناه أو عمّن التقينا من جيراننا القدامى الذين دأبوا أن يعودوا ليتأمّلوا الوادي من عند حافة الخزّان، ويُنعموا النظر في أسطح بيوت فيريراس وشوارعها الغارقة هناك.

خلال الخمسة وأربعين عامًا التي مضت على هجرنا بيوتَنا ومرورِنا بتلك الجبال في طريقنا إلى السهول. لم يعد دومينجو قطّ للحديث عن القرية، ولا عن فالنتين الابن المسكين الذي مات مُبكّرا. كان يُريد نسيان الماضي ففضّل عدم ذكره. أمّا أنا فعلى

العكس، إي نعم كنت أودّ لو أفعل مثله فأمحو اللحظات السيّئة من ذكرياتي وأعيش وكأنّ شيئًا لم يحدث، لكنّي لم أتمكن من ذلك البتّة، بل إنّها بقدر ما كنت أبذل من الجهد لنسيانها، كانت تلحّ عليّ فيزيدني التذكّر ألمًا.

حدث لي ذلك في ذكرى فالنتين، ابني الذي لم أتمكّن من نسيان وفاته المبكّرة، ومغادرته فيريراس رغمًا عنه إلى مقبرته المحميّة تحت طبقة من الإسمنت (وهو أمر ضروريّ لمنع المياه من التسرّب إلى المقبرة وجرفِ عظام الأموات)، لقد ظلّ هناك، مثل مُعظم الموتى. ثمّة من أخرجوا موتاهم وأخذوهم إلى مكان آخر، لكنّي ودومينجو، عندما عرضوا علينا ذلك، قرّرنا ترك موتانا جميعًا في أماكنهم، حتّى فالنتين، إذ لم نكن نستطيع فعل ما فعلوا. وما حدث لابني حدث لذكريات الماضي، ظلّت غارقة تحت مياه بحيرة الخزّان، طوال الأربعين سنةً التي عشتها حتّى تلك اللحظة، ظلّت كلّها في البيت نفسه، حيث وُلدتُ وترعرعتُ، مثل أمّي وجدّتي أندريا، قد لا تكون الأعوام الأربعون كلّها سعادة خالصة، بالنظر إلى أنّ موت فالنتين، وموت أبي في ريعان شبابه عكّرا صفو سعادتي، لكنّي أمضيتها في هدوء، إذ كانت حياتنا تسير على وتيرة حياة أجدادنا، أولئك الرجال والنساء الذي شيّدوا كلّ ما ورثناه عنهم.

أمّا كلّ ما في السهل الذي استوطنّاه فقد شيّدناه نحن. نعم،

إذا استثنينا أنّ البيوت بناها عمّال جاءوا من بعيد جدًّا، ونحن دفعنا ثمنها (ولقد استغرقنا أنا ودومينجو عشرين عامًا في سداد أقساط كُلفتها)؛ إذا استثنينا ذلك، كلّ ما سواه شيّدناه نحن بجهدنا الخاص، من دون مساعدة أحدٍ سوى جيراننا، فهم مثلنا جاؤوا إلى تلك الأرض بعد طردهم بالقوة من أراضيهم. كم بذلنا من العمل والعرق في هذه الأرض اليانعة والمنتجة التي نملُك الآن! عندما جئنا لم تكن سوى أرض قاحلة، وإذا أمطرت السماء جرت المياه فيها بلا توقّف. حتّى إنّنا كثيرًا ما كنّا نغادر أكواخنا بحثًا عن مكان آمنٍ بعيدًا عن أرض تلك القرية، وكثيرا ما كنّا ننام ممدِّدين أيدينا خارج الأسرّة لتلمسها المياه إذا بلغت داخل الكوخ فننتبه إليها قبل أن تغمرنا في حال ارتفع منسوبها أكثر ممّا يُفترض!

هكذا تركنا قرية غارقةً في الماء إلى أرضٍ لا حدود لها بين المياه ومزارع الشعير وعبّاد الشمس. وكان الأمر الأصعب أنّ الجيران القادمين من قرى جبليّة لم يعتادوا العيش في أماكن مناخها مختلف عن مناخ قراهم، لكنّنا انتهينا إلى الإجماع على قبول الحياة في السهل المنبسط. كنّا في السابق معتادين على تحديد أماكننا من خلال علامات طبيعيّة: الجبال والهضاب والطرقات والأشجار المؤدّية إلى الكنيسة وممرّات الجبال القريبة، فضلاً عن موقع الشمس. أمّا خلال الأيّام الأولى في الأرض الجديدةِ علينا فكانت

الشمس فحسب تساعدنا على تحديد النقاط الجغرافيّة، وبفضلها نعرف مكان حقولنا. أتذكّر أنّ دومينجو في كثير من الأحيان كان يستشيط غضبًا، بعد أن يدور مرّات ومرّات حول المكان، من دون أن يستطيع تحديد الاتّجاه ونحن في رحاب السهل ولا نعرف حتّى مكاننا بالضبط.

نعم كان تحديد الاتّجاهات هنا أسهل. وحتّى بعد أن غرق الوادي كلّه وغمرته المياه ظلّ في إمكاننا تحديد موقع كلّ قرية: «كينتانيا» و«كامبيو» و«أوتيرو»، و«بيجاميان»... وبالطريقة نفسها كنّا نحدّد مواقع الحقول وأحواض الزراعة التي تخصّنا، ومراعي الأبقار خلال شهر أغسطس، بالأخصّ عندما تشتدّ الحرارة في منتصف النهار. وكذلك كنّا نُميّز الحظائر التي نجمع فيها الأغنام شتاءً. وأذكر أنّي عندما كنت صغيرةً نمتُ فيها برفقة أمّي أكثر من مرّة بعد تناول وجبة العشاء. ويمكنني القول إنّي أستطيع تحديد مكاني تحت الماء والعثور على كلّ طريق وكلّ مكان وعيْناي مُغمضتان، ولكنّي في المُقابل ما أزال أبذل جهدًا لتحديد مكان قريتنا الجديدة.

أعتقد أنّ الأمر كان صعبًا على زوجي. فأنا في جميع الأحوال لم يتوجّب عليّ فعل شيء سوى تكرار المألوف من حياتي: الاعتناء بالبيت ورعاية أبنائنا ومساعدته كلّما توفّر لي متّسع من الوقت، أمّا هو فلم يقصر اهتمامه على زراعة الأرض الجديدة وفق المعتاد

فحسب، بل عمد أيضًا إلى زراعات لم تكن معروفة من قبل، ذلك أنّ زراعة سفوح الجبال أمر آخر مختلف. ففي أيّامنا الماضية هنا لم نزرع شيئًا تقريبًا سوى البطاطا وقليل من القمح والشعير للاستهلاك العائليّ وتغذية المواشي (إذ كان الرعي أساسيًّا في قرية البُحيرة). وعلى النقيض من ذلك لمّا وجدنا الأرض الجديدة خصبة جدًّا وصالحةً لزراعة جميع أنواع الزروع بكمّيّات كبيرة (البنجر والشوفان والذرة والبرسيم والشعير والقمح...) اشترينا جرّارًا دفعنا ثمنه على أقساط تمامًا كما دفعنا كلفة البيت. والحقّ أنّ ذلك من حسن حظّنا، فقد مكّننا هو والأبقار فحسب من زراعة أنواع مُختلفة في وقت واحد، فضلاً عن أنّه سهّل علينا الحصاد من بعدُ، إذ كانت المسافات الفاصلة بين الحقول والمساحة الشاسعة لكلّ حقل مُلائمةً لذلك.

عندما كبر الأولاد وبدؤوا يُساعدوننا في أعمال الحقل، تسنّى لنا التقاط النَفَس والاستمتاع بما حصلنا عليه، من دون أن يُغادرنا الحزن على ما فقدناه من قبل وتركناه خلفنا. ومثل جيراننا، حسّنّا أوضاعنا، وصرنا نعيش على نحو أفضل، لكنّنا ظللنا نَحِنُّ إلى تلك الحياة القديمة، فمع أنّها أفقر، هي في أذهاننا أسعد لاختلاطها بذكرياتنا العذبة؛ إنّها في عذوبة المشهد الذي كان يُحيطنا ولا تزال بقاياه متناثرة حول مياه بحيرة الخزّان بعد أن امّحت جلّ عناصره من الوجود، باستثناء تلك الأماكن المرتفعة

وسفوح الجبال المحيطة بها. من المؤسف أن دومينجو لا يستطيع مشاهدة كلّ هذا، فأنا على يقين من أنّه مع رفضه العودة لرؤيتها، كان في أعماق نفسه يودّ ذلك ولو مرّة واحدة! وإلاّ لماذا منذ أوّل يوم أوصاني بأن نقوم بعد موته بنثر رماده هنا، وكان وقتئذٍ ما يزال يتمتّع بعافيته وفكرة الموت بعيدة جدّا عن ذهنه كبعد ذلك الوادي الذي ظلّ يرفض العودة لرؤيته؟

قال لي ذلك ونحن نودّع القرية القديمة في صباح بارد من شهر أكتوبر، عند الجبال التي كانت مغطّاةً باللون الأصفر واللون الضارب إلى الاحمرار في خريف غاضب، لون أشجار الكرز القويّة الأشواك، والأشجار المثمرة، وقمم أشجار الحور التي قطعوها حتّى قبل نهاية بناء السدّ. ثمّ طلب منّي الأمر نفسه مرّات عديدة، إحداها في بيت المسنّين يوم تركتنا تريسا هناك، وآخرها في المستشفى قبل موته بقليل. بدا واضحًا أنّه لم يكن موقنًا من تنفيذي ما وعدته به، وبوصفه غير متديّن مثلي، ما كان ليُخمّن البتّة أنّنا لن نحرق جثّته إلا بسبب عدم استطاعتنا العودة بجسده إلى فيريراس لدفنه بجوار موتاه.

هو أيضًا وُلِد هناك، قبل ميلادي بخمس سنوات، فشاهدني وأنا أكبر، وحملني في طفولتي بين ذراعيه بضع مرّات، وفقًا لما حكته لي أمّي، فقد كنّا جيرانًا؛ الباب قُبالة الباب، وربّما ذلك ما جعلنا نرتبط مُبكّرًا سواء بالخطبة أو من بعدها بالزواج. لم أعرف

قبله أيّ رجل، ولم يكن لديّ مُتّسع من الوقت لذلك. إنّ دومينجو عندي ليس زوجي وأبًا أولادي فحسب، بل أبي أنا أيضًا. وفي ظلّ غيابه المبكّر وعدم خبرتي به شعرت بالشيخوخة والحكمة. لقد رحل وتركني الآن وحيدة.

حسن، في حقيقة الأمر أبنائي الأربعة معي، وأيضا أحفادي، وبعضهم يرافقني هذا الصباح في العودة الغريبة إلى فيريراس، أو بالأحرى العودة إلى أقرب مكان من القرية يُمكن بلوغه عندما تكون مياه بحيرة الخزّان ممتلئةً. هم لا يعرفون أنّي رعيتُ هنا، في هذه المراعي، حيث ترعى الأبقار غافلة عمّا يحدث من حولها، (وهي من ضمن مواشي الشخص الذي استأجر هذه الجبال من الدولة، وصار المالك لها منذ جرت مصادرة أراضي القرية) رعيتُ أوّلاً في الأرض التابعة لعائلتي ثم بعد ذلك في أرضي عندما تمكّنت ودومينجو من الحصول عليها. كم من مرّة جلستُ هنا من دون أن أتخيّل اختفاء كلّ هذا في يوم من الأيّام تحت مياه بحيرة خزّان كبير، ولا عودتي مع عائلتي يومًا حاملين رماد دومينجو! لقد كان وقتئذ في ريعان شبابه وأوج قوّته الجسديّة، فلم يخطر ببالي أن الميّت الأوّل سيكون هو.

لكن الساعة جاءت، كما تأتي كلّ الأشياء: النضج والشيخوخة والمصائب والأشياء السيّئة والطيّبة... فما حدث في حياتنا لم يكن كلّه سيّئًا. وباستثناء تهجيرنا وموت فالنتين، ابننا الذي انتزعته

الحياة منّا مبكّرًا، وغياب أبي وأمّي وبعض الأشقّاء، كلّ الأشياء الأخرى في حياتنا كانت طيّبةً جدًّا، ومن بينها أنّنا ظللنا معًا حتّى في دار المسنّين. لقد دخلناها بعد تعنّت طويل، وإنّما فعلنا ذلك تحت ضغط الحاجة وضدّ رغبتنا، إذ لم يعد في إمكان دومينجو أن يبقى وحده بعدما بدأ يفقد الذاكرة، وبقاؤنا معًا كان يشجّعنا ويحمينا من الإحساس بالوحدة في الخارج. لكنّه لم يعد موجودًا وغيابه خلّف فيّ شعورًا باليُتم، تماما كشعوري عندما مات أبي رغم أنّي لم أعرفه كثيرًا؛ ولعلّي ظللت أتذكّره طوال حياتي لهذا السبب.

إنّه مدفون هناك في الأسفل، في أعماق البحيرة التي تغمر الوادي كلّه (لقد سقط الكثير من الجليد هذا الشتاء بحسب ما قالوا)، وهو هناك إلى جوار موتى فيريراس الآخرين وموتى القرى الأخرى الغارقة. ثمّة قرى غرقت برمّتها -لقربها من النهر- وأخرى تحوّلت إلى أنقاض حجريّة، ومنها فيريراس، إذ تمّ تدميرها قبل البدء في تشييد الخزّان بسبب قربها من حواف البناء حتّى لا تتسبّب في أيّ حوادث أثناء انخفاض منسوب المياه، ولحسن الحظّ أنّني لم أشاهد ذلك. قيل لي إنّه في إحدى سنوات الجفاف ظهر كلّ ما عليها مُجدّدًا (فبعض القرى كانت تظهر بانتظام في الصيف) ولكن بعد أن فقدت شكلها بسبب البقاءِ الطويل تحت الماء وغمرِ الطمي أحجارها.

يريد دومينجو أن يعود إلى هناك. يريد أن يكون كأطلال القرية، وأن يأوب إلى مسقط رأسه الذي عاش فيه حياةً سعيدةً حتّى أجبرونا على الهجرة تحت ضغط حالة لم نتخيّل حدوثها البتّة قبل أن يُخبرونا بها. مازلت أتذكّر جيّدًا اليوم الذي عرفت فيه السبب. هو من أخبرني بذلك في صباح أحد الأيّام ونحن نتناول الطعام. كان قد سمع الخبر في مشرب فيجاميان، حين مرّ به لإحضار الحليب. يبدو أنّ الجريدة ذكرت ذلك. والحقّ أنّ الخبر منذ سنواتٍ عديدة لم يعد مجرّد إشاعة، وبدأ يُصبح واقعًا بين الجيران ربّما حتّى قبل أن أولد أنا، وفقًا لرواية جدّتي التي سمعته مرارًا ولم تأخذه على محمل الجدّ، لكنّه بعد مدّةٍ أصبح حقيقةً. تقول الجريدة: «إنّ الحكومة أصدرت قرارًا بمصادرة الأراضي.» لن أنسى ذلك اليوم، فقد خرجتُ فيه إلى الشارع بعد تناول الطعام، وإذا القرية يسيطر عليها سكون غريب.

وسرعان ما انقلب ذاك السكون ضجيجَ شاحناتٍ وحفّارات شرعت تُفتّت الصخور الصلدة في المكان المُحدّد لإقامة الخزّان. ثمّ بدأ شقُّ الطرق والشوارع والأنفاق وهدمُ البيوت، ورغم كلّ ذلك استمرّت الحياة هناك سنواتٍ عديدة، ومنذئذ لم يعد السكون البتّة إلى القرى، وظلّ سكّانها يراقبون تقدّم العمل برهبةٍ. كانوا يعلمون أنّ نهاية تلك الأعمال سوف تعني أيضًا نهاية حياتهم في ديارهم. ولمّا حانت الساعة الموعودة ألفوها أقسى

وأدعى للحزن ممّا تخيّلوه، لكأنّها رغم توقّعهم لها وانتظارهم حلولها أخذت الجميع على غرّة، ربّما لأنّهم من فرط ما اعتادوا رؤية أشغال بناء الخزّان طوال سنواتٍ، اعتقدوا أنّها لن تنتهي أبدًا.

حدث لي الأمر نفسه مع دومينجو. فقد اعتدت وجوده إلى جانبي باستمرار. كنت أرى فيه الأمان وكان يمنحني الثقة والتشجيع حين أحتاجهما لأواصل الحياة، حتّى اعتقدت أنّه لن يتركني أبدًا، تمامًا كما اعتقدت ذلك من قبل مع أبويّ. لكنّه مات، مات ولن يعود البتّة لمرافقتي في دار المسنّين ومقاسمتي السرير في غرفتنا. لطالما تقاسمنا السرير خلال عيشنا المشترك لأكثر من سبعين عامًا في بيتنا بفيريراس ثمّ في البحيرة. كان جسده طوال تلك السنوات يتمدّد إلى جوار جسدي، وكانت عينا كُلّ منّا تُغمضان وتُفتحان في الوقت نفسه، وأحلامه تختلط بأحلامي. وبعد سنواتٍ مُمتدّة من الرقاد معًا (رغم أن علاقتنا الجسديّة انقطعت منذ مدّةٍ كبيرةٍ) أَلِفَ جسده وجسدي التمدّد سويًّا، والآن أصبح على جسدي أن يخبر التمدّد على السرير وحده. وأن يسيرَ ويعيشَ ويكتشفَ تلك الغرفة التي عليّ أن أتقاسمها مع شخص آخر سيكون جسده غريبًا عن جسدي تماما مثلما سيكون جسدي غريبًا عن جسده.

كم من السنوات مرّت، يا إلهي، منذ أخذني دومينجو إلى حانة

«لاس كويفاس» التي يقيمون فيها حفلات للرقص كلّ يوم سبت! تُرى لمن أستطيع أن أحكي عن مشاعري في ذلك المساء؟ (تلك المشاعر التي اعترتني عند عودتي، واستمرّت معي طوال الليل) ولمن أصف إحساسي عندما كنّا نسير معا في طريق فيجامنيان؟ كيف أعترف لأيّ شخص بأنّ حياتي منذ ذلك الحين سارت في طريق عكسيّ محاط بالأشواك والشوفان، وأنّها لم تعد اليوم سوى مجرّد ذكريات ترقد تحت المياه في هذه البحيرة التي سترقد فيها بعد قليل بقايا دومينجو؟ نعم، سترقد بقايا دومينغو إلى جوار أبويه، وإلى جوار أبويّ، وإلى جوار ذلك الابن الذي لم نشاهده يكبر، إذ غاب عنّا مبكّرا جدّا، وظلّ في انتظارنا طوال كلّ هذا الزمن، ونحن نرحل من مكان إلى آخر مبدّدين قوانا وحياتنا في العمل من أجل العودة إلى هنا.

لقد فعلها دومينجو اليوم، وأرجو ألّا أنتظر طويلًا حتّى أتبعه.

تريسا

لم يكن يدهشني أن أرى أمّي تنفعل كلّما رأت تلك الجبال، وبالأخصّ اليوم، فقد جئنا من أجل الهدف الذي جاء بنا إلى هنا. أنا أيضًا لم أعد لرؤيتها منذ كنت في السادسة عشرة من عمري، عندما انتقلنا إلى «بالنثيا»...

أذكر ذلك كأنّه جرى اليوم. أذكر وداع الجيران الذين ظلّوا يقاومون فكرة وجوب الرحيل عن فيريراس ويُرجؤون المغادرة حتّى يكتملَ بناء الخزّان ويُجبَروا عليها، وهو أمر كانوا يعرفون أنّه قريب جدًّا (فقد وقع قطع جميع الأشجار وقيل لهم إنّ التيّار الكهربائيّ على وشك أن يُقطع)، ما زلت أتذكّر الرحيل في تلك الشاحنة التي حملت جميع أفراد العائلة والحيوانات وكلّ ممتلكاتنا. كنّا «كالغجر». والعبارة لأمّي عندما شاهدت جيراننا الآخرين في القرية وهم يرحلون قبلنا إلى مكان إقامتهم الجديد.

ما أستحضره أيضًا بوضوح، أنّ كلّ شيء كان جاهزًا قُبيل رحيلنا، ومُجمّعًا في حظيرة الدواجن إلى جوار أدوات الزراعة. وطبعًا لم نستطع أخذ الموجود كلّه. بدا البيت كالمخزن الخالي،

يتردّد فيه صدى أصواتنا كلّما تحدّثنا. نمنا جميعًا في المطبخ، أبواي على مرتبة فُرشت أرضًا، وفيرخينيا وأجوستين معًا، وأنا وطوني على الأريكة. وكنّا قد تناولنا طعام العشاء في بيت عمّتي بالبينا (ماتت المسكينة بعد ذلك بزمن قليل)، وإثر العشاء مررنا بالبيوت الثلاثة التي كانت ما تزال مفتوحةً لنُودّع من تبقّى فيها. في صباح اليوم التالي، تجمّع الجميع أمام بيتنا لمساعدتنا في شحن متاعنا ولوداعنا قبل أن ننطلق. كان المشهد نفسه قد تكرّر كثيرًا في تلك الأيّام، وفوق ذلك تكرّر في أحلامي مرارًا حتّى أصبح ألمًا متواصلاً خمّنت أنّه يُشبه ألم اليهود الذين نجوا من معسكرات الاعتقال النازيّة خلال الحرب العالميّة الثانية.

لبثنا ننتظر ما سوف يحدث لنا في نهاية الرحلة التي استغرقت تقريبًا يومًا كاملًا، لأنّ الطرق في ذلك العهد ليست مثل طرق اليوم. لم يكن مكاننا معسكر اعتقال، لكنّه بدا مثله، بتلك الأكواخ المبنيّة بألواح زنك «أوراليتا» التي أقاموها لنعيش فيها حتّى اكتمال بناء بيوتنا، وما كنّا قد شاهدنا مثلها من قبل (فنحن حتّى ذلك الوقت لم نعرف السينما ولا التليفزيون). إنّها هناجر أشبه بمعسكرات اعتقال لا مكانًا للإقامة فيه بكرامة. مازلت أتذكّر أيضًا مشهد إغلاق أبي أبواب بيتنا في «فيريراس» بالمفاتيح ثمّ احتفاظه بها في جيبه بعد شحن مَتَاعنا (كأنّه لا يعرف أنّ المياه سوف تغمر البيت كلّه بعد وقت قليل). لقد عاد كلّ ذلك إلى

ذاكرتي عندما قرأت مذكّرات بعض اليهود الإسبان، ممّن أُجبروا على الهجرة فاحتفظوا بمفاتيح بيوتهم في إسبانيا على أمل عودتهم إليها يومًا ما.

مسكين أبي، حين حان دوره أخذ نصيبه من المعاناة! أتمثّله دومًا خلال دورانه في عجلة الحياة، يقوم بألف مهمّة، سواء هنا أو في الجبال وفي البحيرة حيث كان يقضي اليوم كلّه. لقد كُتِب عليه أن يُعاني هنا من صعوبة العمل في الحقل ويواجه هناك حجم الجبل الهائل. صحيح أنّ ملوحة الأرض سرعان ما اختفت (وكانت قد ظهرت بعد بدء إعدادها للزراعة وأثّرت كثيرًا في إنتاجها) لكن ظلّ هناك مشكل آخر هو أنّ الحقول في البحيرة شاسعة جدًّا، ولذلك لم يستطع النهوض بها بمفرده، بالأخصّ في البداية. وفي خصوص ذلك لطالما قلت: «من حسن الحظّ أنّي وطوني استطعنا مساعدته، ومن سوء الحظّ أنّ مساعدتي له لم تدم إلاّ فترة قصيرةً جدًّا فأنا مثل أمّي، تزوّجت باكرًا». لست نادمة على ذلك، لكن لو عاد بي الزمان لما فعلت الأمر نفسه. لا بسبب فقداني شبابي في وقت مبكّر، فذلك لم يكن يعنيني كثيرًا وقتئذ من فرط ما غرقت في حبّ ميجيل، بل لرغبتي في العيش مع أبويّ لفترة أطول. وددتُ لو أستمتع برفقتهما أكثر، وأساعدهما أكثر. لكم أردتُ المساهمة معهما في تحمّل أعباء البيت بجهدي، وأيضا في دفع الأقساط التي عليهم دفعها لشراء مزيد من الأراضي. إذ

كنت أعلم وجوب أن تُؤدّى في آجالها لُملاّك الأرض، أو بالأحرى لمالكتها وهي سيّدة تحمل لقب ماركيزة لم يشاهدها أحد هنا قطّ.

لكنّ حياتي سارت على نحو مُغاير، وفات الوقت ولم يعد ممكنًا تغيير مسارها. وعزائي الوحيد الآن أنّني مازلت متزوّجة ولديّ أسرتي لأرعاها. لقد ساعدت أبويّ بقدر ما استطعت، بالأخصّ في تلك الأيّام التي تلت تقاعدهما، حين بقيا وحيدين في البيت برفقة أجوستين. وحتّى في دار المسنّين، كنت أهتمّ برعايتهما وأزورهما في فترات متقاربة. على الأقلّ فاق اهتمامي بهما اهتمام أيّ من أبنائهما الآخرين.

كيف لي ألّا أفعل ذلك وأنا أدين لهما بالكثير؟ لقد بلغنا ما بلغناه بفضلهما، وهذا ليس قليلًا بالنظر إلى الصعوبات التي اعترضتنا في أوقاتٍ كثيرة، لا سيّما عند وصولنا إلى البحيرة لنبدأ حياة جديدة في أرض غريبة بجوار أناس لم نعرفهم من قبل. بعد ذلك اختلطنا بهم وتكيّفنا، بل إنّنا أقمنا معهم علاقات أقوى من تلك التي كانت تربطنا بالجيران في قريتنا القديمة فيريراس. نعم، أولئك كانت تربطنا بهم الأصول والحاجة إلى مواصلة الحياة، وفي حضور جيراننا الجدد نسينا حياتنا السابقة معهم. أنا تأقلمت مع المكان سريعًا، أمّا والداي فوجدا صعوبة في ذلك لأنّهما عاشا كثيرًا في قريتنا القديمة. ثمّ شيئًا فشيئًا تعوّدا على المكان والحياة الزراعيّة الجديدة، وعلى بيتهما الجديد والقرية التي أخذت تنمو

وتتّسع من حولهما (كانت المباني فيها متشابهة، كلّها مطليّة بالأبيض والأحمر، والمدارس والكنيسة تشبه صور القواميس التي كنت أدرس بها في فيريراس، والشوارع جميعها تمتدّ في خطوط مستقيمة)، لكنّ ذلك الاعتياد على الحياة الجديدة أجهدهما، فقد انتقلا من عالم إلى عالم آخر فُتح أمامهما، بل ثمّة أكثر من الإجهاد، أعتقد أنّهما لم يألفا العالم الجديد تمامًا، ولذلك ظلّ الحنين يُلازمهما حتّى في دار المسنّين.

كان من الصعب عليهما الانتقال إلى دار المسنّين، لكنّهما فعلا ذلك بعد لأي، إذ أقنعتُهما بأنّهما لا يستطيعان مواصلة الحياة في البحيرة وقد تقدّم بهما العمر، بالأخصّ أبي لفرط ما بذله من جهد طوال حياته، يُضاف إلى ذلك أنّه كان قد بدأ يعاني من الهذيان وفقدان الذاكرة، وجُلّ وقته يقضيه أمام البيت متأمّلا الحقول، وفي أيّامه الأخيرة ما عاد يعرف الناس. وحين نصحنا الطبيب بأن ننقله إلى إحدى دور المسنّين أبدت أمّي أوّل الأمر مقاومتها للفكرة، ثم رافقته إلى هناك حتّى لا تتركه وحده. لقد عاشا معًا زمنا طويلاً وما كانت لتتخلّى عنه.

تُرى ما مصيرها بعد اليوم؟ حين شاهدتها مرتديةً ملابس الحداد وتسير بيننا في اتّجاه الخزّان الذي دمّر حياتها تذكّرت الأرامل وأمّهات البحارة اللاتي يتأمّلن البحر سارق أبنائهن وأزواجهن. هي أيضًا سرق منها الخزّان ابنًا ظلّ مدفونا في المقابر

عندما هجرنا بلدتنا (والواقع أنّي لم أعرفه البتّة)، وخلال دقائق قليلة سوف يأخذ روح زوجها، سيذهب على هيئة رماد تأكله الأسماك. ربّما هذا ما تفكّر فيه الآن، وأحسبها عانت كثيرًا لتنفيذ وصيّة أبي بحرق جثّته والعودة بها إلى حيث وُلد، لكنّ التقاليد أجبرتها على التقيّد بالوصيّة من دون أدنى معارضة، فأمّي وأنا ننتمي إلى أولئك النساء اللاتي جُبلن على الطاعة، أوّلا طاعة الآباء وبعدها طاعة الأزواج. كم نحن مختلفتان عن بنات اليوم!

أمّا بنتاي، فعلى العكس، هما من تقرّران كلّ شيء. إحداهما لأنّها عزباء والأخرى لأنّها ذات شخصيّة مُستقلّة جدًّا. وحتّى الزواج لم يدفعها إلى تغيير موقفها ولا يبدو أنها سوف تتغيّر. وأظنّ هذا أمرًا حسنًا، لكنّ أمّي مثلي أنا. لها عقليّة أخرى نقلتها إليّ، كما نقلتُ إليها عقليّتي عندما كنت طفلة ولم أحاول معارضتها. لهذا أنا أتفهّم بقيّة أشقائي جيّدًا. ففي جميع الأحوال نحن نتقاسم فكرة العائلة وموقفنا منها.

أتذكّر أنّها أخذتني مرّة إلى «بالنثيا» للتسوّق وكنتُ وقتئذ قد أكملتُ الثامنة عشرة من عمري. ذهبنا في الحافلة، وظللنا طوال النهار ننتقل من مكان إلى آخر لشراء ملابس وأحذية لأشقّائي ومعطفٍ لي. وحين جلسنا في أحد المتنزَّهات العامّة نأكل سندوتشًا أحضرناه معنا من البيت (واعلموا أنّ والديّ لم يأكلا في مطعم إلاّ بمُقتضى بعض المناسبات، حرصًا منهما على توفير كلّ

سنتيم)، حين جلسنا، حدّثتني بما كنت أعرفه من قبل: أنّني وصلت إلى مرحلة عمريّة تقتضي أن أتعرّف إلى شخص لأتزوّج به، وأن أستعدّ لذلك اليوم. والاستعداد يعني، على ما أعتقد، أن أملكَ معطفًا جديدًا، وأكونَ خاضعة لإرادة زوجي وأبذلَ كل ما أملك من جهد جسديٍّ وروحيٍّ لرعايته ورعاية عائلتي. وإذا الأمر كأنّه نبوءة، ففي ذلك الصيف ظهر ميجيل.

لقد حُصِرتْ حياتي في هذا بالضبط: رعاية زوجي وأبنائي الثلاثة طوال فترة عيشهم معنا في البيت، بل حتّى الآن، بعد أن تركوا البيت وما عادوا يعيشون معنا. إنّ عملَ أيّ أمّ لا ينتهي أبدًا، تماما كما في حالة أمّي، حتّى بعدما بلغت الرابعة والثمانين ما تزال تهتمّ بنا، كأنّنا لا نستطيع الاستغناء عنها. والواقعُ أنّها هي الآن من أصبحت في حاجة إلى أبنائها. لا أُنكر أنّها ما تزال في وضع صحيّ جيّد وتحتفظ بذاكرتها كاملة، فتردّد أشعارًا حفظتها في المدرسة وتستحضر تفاصيل أحداثٍ وقعت قبل مائة عام، لكنّها لا تستطيع الحركة وحدها رغم إصرارها. لذا يجب أن تستمرّ في الإقامة بدار المسنّين إلّا إذا عرض أحد أشقّائي أخذها إلى بيته، وهو أمر أراه شبه مستحيل.

ومهما يكن من أمر فاللحظة الراهنة ليست مناسبة للتفكير في هذه الأشياء. إنّها لحظة وداع أبي قبل أن يستريح إلى الأبد حيث أراد، إلى جانب أبويه وابنه البكر الذي لم يغب عن ذاكرته قطّ ولو

تظاهر بالعكس. هناك، في مكان مولده سوف يستريح. يا له من إحساس غريب يشعر به كثير من الأشخاص تجاه الأماكن التي انتموا إليها حتّى بعد اختفائها، تماما كما هو الحال في عائلتي! كم من مرّة سمعت في البحيرة أشخاصًا مسنّين يتحدّثون عن حنينهم إلى قراهم التي ما عادوا يستطيعون العودة إليها إلاّ وهم موتى، مثلهم مثل أبي. أوّل الأمر كان هذا يثير دهشتي، ثمّ أصبحت أتفهّمهم. لقد ذهبتُ من هنا وأنا بعدُ صبيّة، لكنّي مازلت أعشق هذه الجبال وهذا الوادي الغارق تحت المياه، ورغم أنّه يكاد يمّحي من ذاكرتي أحنّ إليه. ثمّة حالة من الحزن تعتريني كلّما شاهدته، وهو حزن نما مع تقدّم العمر.

اليوم اعتراني ذلك الحنين المختلط بالحزن الذي أحمله داخلي منذ أيّام مضت، أي منذ وقع أبي في غيبوبة لم يعد بعدها للحياة البتّة. لكأنّه ودّع إلى الأبد عالمًا بدا له في كثير من الأوقات معاديًا، أو على الأقلّ هذا ما نقله لأبنائه. فقد كان كلّ شيء في نظره خطِرًا. وأنا أفهمه إلى حدّ ما، لأنّني أعرف ما مرّ به: الألم الذي أصابه عندما أُجبر على ترك عالمه، وعدم التفهّم الذي لقيه من بعض الأشخاص القريبين منه (وفيهم من هو أصيل البحيرة نفسها) إذ عَدُّوا حالته مرضًا من أمراض الحنين المُسيطر عليه، وكأنّه ليس لديه الحقّ الإنسانيّ في أن يحنّ إلى أرضه. باختصار، مادام هناك أناس غير مُتفهّمين لا يقبلون تطوّر أراض أخرى ويقفون في

طريقها، لا غرابة إذن أن يبدو العالم لأبي معاديًا وخطَرًا يهدّد مكاسبه. وما هذه المكاسب إلاّ أفراد عائلته وأملاكه في البحيرة، الذين بذل حياته من أجلهم.

لطالما سمعته وأنا في سريري يحمل محراثه ويخرج من البيت ليلاً، قبل أن يبزغ الفجر بوقت طويل. وما أكثر مرّات عمله في الحقل منذ طلوع الشمس حتّى غيابها من دون أن يستريح لأنّ مُجريات عمله هناك تتطلّب ذلك. ورغم أنّني كنت مُدركة لما يجري لم أشعر حينئذ بقيمة صنيعه، لأنّه كان يفعل ما يفعله الجميع في البحيرة. لكنّي عرفت تلك القيمة مع مرور الزمن، ولو بعد أن فات الوقت وما عاد في وسعنا أن نشكره على مجهوداته ولا أن نردّ له الجميل على الأقلّ بمساعدته هو وأمي تقديرًا لما فعلاه من أجلنا.

لم يعاتبنا قطّ، لا أنا ولا إخوتي، مع أنّه كان لديه كلّ الصلاحيّات ليفعل ذلك. ويوم رافقته إلى مدينة ليون لزيارة شقيقه خوان إثر تعرَّضه إلى وعكة صحّيّة خطرة (وكانت أمّي وقتئذ قد تعذّر عليها الذهاب معه، لأنّها ظلّت ترعى أجوستين الراقد هو أيضًا في السرير جرّاء المرض)، في ذلك اليوم، قال لي إنّ كلّ ما فعله مجرّد أداء لواجبه المتمثّل في رعايتنا. وفيما القطار يخترق السهل أطلّت علينا مرارًا قمم جبال الوادي الذي وُلد فيه ولم يشأ العودة إليه البتّة حتّى لا يراه مُدمَّرًا.

وها قد عاد اليوم، لكنّه عاد في صيغة حفنةٍ من الرماد أحتفظُ بها الآن في علبةٍ صفيحٍ جلبتها من محرقة الجثث، هي كلّ ما خلّفته جثّة رجل قويّ مثل الجبال التي نعبر، هذه الجبال الغارقة في الصمت بعدما بقيت وحيدة. في الماضي كان الرجال يصعدونها ومعهم مواشيهم بحثًا عن الحطب والمراعي الأكثر خضرة فتُسمعُ أصواتُهم وتبدو هيئاتهم عن بعد. أمّا الآن فالمشهد يبدو ساكنًا تماما مثل أبي، وليس هناك ما يُسمع سوى صوت الماء، ذلك الخرير المُتواصل بلا نهاية، كما في بئرٍ بلا قرارٍ. إنّه يسري نهارًا وليلاً من دون توقّف منذ أغلقوا الخزّان، ويذكّرنا بالبحر البعيد حتّى وهو لا يُماثله قوّة وعمقًا، فالخرير هنا لا يسمعه سوى مَن يأتون خصّيصا لتأمّل المياه، وهؤلاء في أغلب الأحيان يجهلون ما تخفيه تحتها والتاريخَ الذي محته إلى الأبد منذ هدم آخر قرية كانت هنا. وتبعًا لذلك ترى بعضهم يهتفون: «يا له من مشهد رائع!»

أمّا أنا فأقول: «يا له من مشهد مثير للأسى.»

ميجيل

حقًّا إنّه لمشهد رائع ما انفكّ يثير إعجابي مع أنّي شاهدته كثيرًا.

أتذكّر أن تريسا حدّثتني مرارًا عن هذا المشهد قبل أن أطّلع عليه، عندما كنّا ما نزال خطيبيْن ونذهب إلى بالنثيا مساء يوم الأحد، ربّما جرى ذلك ونحن عائدان من السينما أو ونحن نمرّ بطريق البحيرة في إحدى أمسيات الصيف التي كنت أخصّصها لزيارتها. لقد تبادلنا الأحاديث وقتئذ أكثر من تبادل الأسرار التي بيننا، وأسرار تريسا كانت هنا بين هذه الأشجار العالية التي أصبحت اليوم تاريخًا مثيرًا للشجن وللإحساس بالعزلة. ففي غير أوقات الصيف، واليوم ليس منها، لا يجرؤ الناس على المغامرة والسير في الطرقات التي حلّت محلّ الطرق القديمة، لأنّها تكون غارقة كلّها تحت سطح مياه الخزّان الزرقاء هذه، وهي الرابطة بين القرى القليلة التي لا تزال تمارس الحياة من خلفه رغم انعزالها عن التحضّر.

يا للزمن البعيد بُعد الحياة والمدن التي هاجر إليها معظم سكّان تلك القرى!

وزيادة على المرّات الكثيرة التي حدّثتني فيها تريسا عن الحياة الماضية هنا قبل أن يحدث كلّ هذا، كان حَمِي وحماتي أيضا يحكيان لي بمزيد من التفصيل، وهو أمر طبيعيّ لأنّهما يعرفان المكان أكثر منها، لكن يبقى من الصعب تخيّل كلّ ما كان، مادام المشهد الكئيب الراهن يغطّي هذه الأرض، وكثير من الناس يجهلون وجود قرى مليئة بالحياة. لقد عانت قريتي من الأمر نفسه لكنّ الهجرة منها لم تكن شاملة كما حدث هنا في القرى التي نجت من الغرق. وسواء تحدّثنا عن الناس الذين طردهم الخزّان أو عمّن هجروا قراهم بعد أن عزلتها مياهه تظلّ المحصّلة واحدة وهي أنّ القرى تقلّصت وبعضها أصبحت مجرّد رموز، حتّى إنّ إحداها لم يتبقّ فيها سوى ساكن واحد يهجرها في فصل الشتاء ثمّ يعود إليها.

كم هو صعب العيش في مثل هذه الظروف! لكن، بفضل معرفتي التامّة بحَمِي وحماتي أدركت أنّ هناك بشرًا يُمكنهم أن يفعلوا ذلك، وفهمت التصاق هؤلاء الأشخاص بالجبال وما يشعرون به تجاهها. أعتقد أنّ حَمِي عانى كثيرًا قبل أن يطلب منّا حملَ رماده إلى مياه الخزّان. وإنّما جئنا هنا اليوم لننفّذ وصيّته الأخيرة وقد أجبرتنا على العودة إلى المكان الذي رفض العودة إليه وهو على قيد الحياة، لأنّه لا يقوى على أن يكون هنا حيًّا.

الحقيقة أنّ حَمِي كان رجلاً صعب المراس، إذا قال «لا» ليس

لأيّ شخص أن يثنيه عن رأيه، فيظلّ متمسّكًا بموقفه مدافعًا عنه، وثِقْ بأنّه لن يُغيّره أبدًا. لقد كان رجلا جادًّا، من أولئك الذين لِكَلمتِهم قيمة أكبر من أيّ وثيقة مكتوبة. ولذلك لا زلت أفكّر في ما عاناه جرّاء تعنّته في رفض العودة إلى القرية حيًّا. إنّ من اعتاد على حصاد عمل يده والتجارة بماشيته جاعلاً من كلمته الضمانة الوحيدة لصدقه، يصعب عليه أن يجد نفسه في مواجهة سيلٍ من الوثائق والعقود والشهادات تتحدّث عن ملكيّته لهذه الأرض. أوّلًا وثائق شراء أرض الحقل، ثمّ ملكيّة بيته في البحيرة، وبعدها عليه أيضًا أن يصارع الزمن. ولم يكن وحماتي مُعتاديْن على ذلك، مثلهما مثل جميع الذين يعيشون هنا.

لَكَمْ حكى لي عن حياته هنا، منذ كان طفلاً وبدأ العمل مع أبويه (إذ عمل قبل ذلك مع أعمامه في قرية قريبة أغرقها الخزّان هي أيضًا) إلى أن هاجر في سنّ الرابعة والأربعين ومعه ثلاثة أبناء صغار ليبدأ حياة جديدة في مكان آخر. وخلال تلك الفترة شهد مجاعة ما بعد الحرب الأهليّة والتقى الهاربين الذي قاوموا في هذه الجبال حتى الأربعينيّات، وخبّأ بعضهم مرّات عديدة -بحسب ما رواه لي- ثمّ ذهب لأداء الخدمة العسكريّة في إفريقيا وعاد من بعدُ إلى القرية وتزوّج بجدّتي فأنجبت له خمسة أبناء تباعًا، ماتت أكبرهم ولم يتجاوز عمرها العامين (عمر حفيدتي الآن)، ثم انطلقت أشغال إقامة الخزّان فتفرّق جميع الناس... وهو ما أثّر في

حمي أكثر من أيّ أمر آخر، أكثر حتّى من تدمير الوادي والقرى. علمت ذلك حين اعترف لي ذات يوم قائلاً إنّ أشدّ ما أثّر فيه هو إبعاده عن جيرانه الذين عرفهم طوال حياته.

لقد حظي بجيران جدد في البحيرة، بعضهم جاؤوا من قرى تلك الجبال (وفيهم من كان يعرفهم) ومع ذلك لم يعُدّهم جيرانًا بأتمّ معنى الكلمة، مادام هو مجرّد عابر في القرية الجديدة. فرغم كلّ ممتلكاته وبيته وأولاده الذين نبتوا مع الزمن من اللا شيء في هذه الأرض القاحلة ظلّ حمِي يرى نفسه هناك غريبًا. عندما تعرفت إليه، كان حديث عهد بالمكان فخمّنت أنّ إحساسه نابع من ذلك. لكن مرّت السنوات وبقي كما هو: منغلقًا على ذكرياته ومنعزلاً عمّا يحدث من حوله، لا يهتمّ بغير ما يتعلّق بأملاكه وعائلته. وفي ما يخصّني يمكن القول إنّه كان لطيفًا معي، فمنذ ارتبطت بتريسا وازدادت زياراتي لبيته (وحتّى قبل ذلك، أيّامَ كنت أخشى الدخول إليه احتراما)، لم يبدُ منه تُجاهي إلاّ كلّ ودّ، أمّا عدم إظهاره الاهتمام في البداية فأمر طبيعيّ من رجل ينتمي إلى عقليّة أعرفها جيّدًا، لأنّ أفراد عائلتي يُشبهونه.

مع مرور السنوات زاد تعلّق كلّ منّا بالآخر. ورغم أنّه لم يُظهر مشاعره نحوي بوضوح -لأنّ ذلك ليس من طبعه- كنت أشعر بامتنانه لما أفعله من أجله، بالأخصّ بعد زواجي من تريسا وتكرّر ذهابي لمساعدته في أمسيات الأحد، سواء في الحصاد صيفًا أو في

أعمال أخرى شتاءً، ففي ذلك الوقت أنا وتريسا كنّا نعيش في بالنثيا أي غير بعيد عن البحيرة. وحتّى بعد أن انتقلنا إلى بلد الوليد وقلّ عدد زياراتنا -لا لبعد المسافة فحسب بل أيضًا لأنّ أبناءنا بدؤوا يكبرون وأصبحت لهم احتياجاتهم الخاصة- واصلت أنا تلبية دعواته كلّما احتاج إليّ، لا سيّما في الصيف عندما تزداد أعماله. لكن الاعتراف بالجميل أمر والمحبّة أمر آخر مختلف تمامًا، وهو ما لم يكن يبديه تجاهي صراحة. ومع اقتناعي بهذا الاختلاف، أنا متأكّد من محبّته لي وثقته بي. ويكفيني أنّه كان دومًا يطلب رأيي عندما تواجهه مشكلة ما، ويفضّل سماعي قبل سماع أولاده.

تريسا أيضًا كان يثق بها جدًّا. ربّما لأنّها ابنته الكبرى، وربّما بسبب قوة شخصيّتها وشبهها الكبير بشخصيّة حماتي. وهو ما جعلهما متقاربتين أشدّ التقارب. حتّى بعد أن دخلت حماتي دار المسنّين ظلّت تريسا تُهاتفها يوميًّا ولم تغفل عن ذلك ولو مرّة واحدة، هذا فضلاً عن ذهابنا إلى بالنثيا لزيارتها كلّ أسبوعين. والآن، وقد أصبحت المسكينة وحيدة أظنّ أنّنا سنغيّر وتيرة الزيارة ونجعلها مرّة في الأسبوع.

إنّه لأمر مُضنٍ أن يبقى المرء وحيدًا إلى الأبد! أعني من الصعب جدًّا، بعد حياة كاملة وطويلة من العناية بالأبناء كما في حالة حماتي، أن تراهم يغادرونها وتبقى وحيدة حتّى النهاية. لقد

حدث الأمر نفسه لنا أنا وتريسا في السنوات الأخيرة، ولم يُعزّنا سوى أنّنا ما زلنا معًا. كذلك والداها كانا معًا حتّى أمس، لكن منذ اليوم صار على حماتي أن تتعلّم العيش وحيدة.

مازلت أذكر جيّدًا اليوم الذي لقيتها فيه أوّل مرّة. كنّا أنا وتريسا قد بدأنا الخروج معًا منذ ستّة أشهر تقريبًا (من دون أن أتعرّف إلى أيّ من أبويها)، وفي ذلك اليوم ما إن وصلتُ إلى البحيرة لمرافقتها حتّى وجدتُ نفسي في مواجهة أمّها، إذ كانت خارجة من البيت في اللحظة نفسها. ركّزت بصرها عليّ للحظات (كأنّها تعرف تمامًا من أنا)، لكنّها لم تتوقّف بل واصلت طريقها في اتّجاه الكنيسة التي ما انفكّت أجراسها تدقّ داعية الناس لحضور الصلوات، والأرجح أنّها صلوات من أجل فيريراس. ولقد لاحظت اصطحابها لصورة العذراء، تلك الصورة نفسها التي حملَتها معها من بعدُ إلى البحيرة، ربّما خوفًا من أن يسرقها أحدهم عندما تخلو القرية من سكّانها، وهو أمر علمته لأنّني تزوّجت بابنتها. أمّا حمي فلم أتعرّف إليه إلاّ مُتأخّرًا، إذ مضى عام كامل منذ بداية علاقتي بتريسا حتّى قدّر أنّ لحظة التعارف قد حانت.

أذكر ذلك كأنّه حدث اليوم: كان يجلس على كرسيّ المطبخ الذي يُكَنّونه العرش، (فالمسميّات أيضًا أخذوها معهم من الجبال ليحافظوا عليها هناك)، ولم يكلّف نفسه دعوتي للجلوس، بل

اكتفى بمدّ يده للسلام، فيما ظلّت حماتي تتأمّل الموقف من دون أن تتدخّل. تريسا أيضًا لزمت الصمت رغم توتّرها الواضح. ومن حسن الحظّ أن ظهر عديلي طوني فجأة وحيّاني -إذ كنّا قد تعارفنا من قبل- فانتهزت هي تلك الفرصة وقالت لأبيها إنّني مستعجل، بسبب اضطراري للعودة إلى بالنثيا بدرّاجتي البخاريّة والليل قد بدأ يرخي سدوله.

كم مرّة تذكّرت هذا المشهد وكم مرّة ضحكت معها وأنا أحكيه لبناتي كلّما قدّمت لي إحداهنّ واحدًا من أزواج المستقبل الذين تعرّفن إليهم! كنّ يعتقدن أنّ حدوث ذلك بيني وبين جدّهنّ أمر مدهش بسبب ما اعتدنا رؤيته من تقاربنا الشديد. فأنَا وحَمِي استطعنا أن نكون صديقين حميمين. صحيح أنّي ظللت أحفظ له مكانته كأيّ صهر ولكن فارق العمر لم يمنع صداقتنا من أن تكون حميمة. وتلك الحظوة بقيت حاضرة حتّى النهاية. وأحسب أنّ تأثّري الشديد بموته راجع إلى ذلك وأيضًا إلى ما يمثّله لزوجتي تريسا ولأبنائي، فقد كان أبًا وجدًّا مثاليًّا له موقع خاصّ في ذاكرتهم وذاكرة هذا الوادي الغارق الآن تحت مياه الخزّان. مع أنّ أبنائي لم يولدوا هنا.

لم يتسنّ لإيفان أن يحضر لحظة وداعه (فقد عاد إلى نيويورك قبل وقت قصير من دخول حمي المستشفى)، لكن راكيل وسوسانا كانتا حاضرتيْن إلى جانب أمّهما تتأمّلان الوادي كما

أتأمّله أنا الآن دَهِشتَيْن من روعته وبهما في الآن ذاته إحساس غامر بفقد الجدّ.

بعد وقت قليل سوف يرقد جدّهما هناك إلى الأبد.

سوسانا

أنا جائعة.

لم أذق لقمةً واحدةً منذ الإفطار في بلد الوليد. وقد مضت على ذلك ساعات عديدة، هي الوقت الذي قضيناه في المسافة من بلد الوليد إلى بالنثيا أوّلاً، ثمّ من بالنثيا إلى وادي ليون، ذاك المكان الذي يضمّ جزءًا من جذوري، ولكن ليس لي فيه أيّ ذكرياتٍ إلاّ ما يشملني من ذكريات أمّي وبعض ذكريات أجدادي، لا سيّما جدّتي، لأنّ جدّي لم يكن يتحدّث كثيرًا عن مسقط رأسه مَفضّلاً أن تقتصر ذكرياته على الأشياء التي لم يعد لها وجود الآن، أي تلك التي اختفت.

وها قد اختفى الآن هو أيضًا، بالهدوء نفسه الذي ميّزه في حياته، فهو لم يشكُ يومًا أو يتسبّب في مضايقة أبنائه إلا بما لا يستطيع كتمانه. وأظنّ أن هذا المشهد ترك أثره فيه، إذا كان مثل هذه الجبال صلدًا وصامتًا.

إنّ تأمّل هذه الجبال مثير للشجن، ما في ذلك شكّ، فعدا

صوت بعض السيّارات المارّة بالطريق، لا يمكن سماع أي شيء في هذه الساعة، سوى دبيب خطواتنا على الحشائش، خطوات أبويّ، وخطوات أعمامي، وصوت أقدام شقيقتي، وصوت قدميّ أنا أيضًا... أمّا جدّتي فتخطو بخفّة شديدة، ربما بحكم العادة أو بسبب الانفعال، وتكاد لا تُحدث صوتًا عندما تنقل أقدامها. وبإمكاني القول إنّها تسبح في الفضاء أكثر ممّا تسير على سفح البحيرة.

في صباح اليوم بدت شبحيّة بعض الشيء، ترتدي السواد من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وصمتها وغياب علامات التعبير على وجهها (كأرملة إغريقيّة، على حدّ تعبير شقيقتي عند نزولها من السيارة) جعلاها تشبه شبحًا أكثر ممّا تُشبه امرأة من لحم ودم، والحال أنّها كائن حيّ مثلي تمامًا، رغم وجود فوارق كبيرة بيننا نحن الاثنتين. إنّها الفوارق بين امرأة عجوز توقّفت حياتها في الماضي إلى الأبد وامرأة مثلي، تفكّر كلّ يوم في بدء حياتها، على الأقلّ حتّى هذه اللحظة. ورغم كلّ هذا نحن متفاهمتين لأنّني كنت أوّل أحفادها، وأعتقد أنّني المفضّلة لديها.

كنتُ مدلّلة من جدّي أيضًا وأنا لا أزال طفلة. ولطالما أخذني معه في نزهات وأركبني الجرّار عند ذهابنا إلى القرية في الإجازات، وهو أمر كنتُ أحبّه كثيرًا، فما أجمل تأمّل المشهد الذي حولي من مكاني العالي بجواره في كابينة الجرّار، إنّه أعلى من

حقول القمح. من هناك كان يُخيّل إليّ أنّي صرتُ طائرةً ورقية تطير فوق السهل على امتداد الحقول. يا له من مكان مختلف، مكان يُشعِرُ الواحد منّا بأنّه في مواجهة تلك الجبال التي تبدو كأنّها تقطع وجه السماء.

عندما شاهدتها لأوّل مرّة كنتُ ما أزال في السابعة من عمري أو ربّما في الثامنة، وكما حدث لأشقّائي، شعرت بالرهبة حالما نظرت إليها. كنت أعرف أنها كبيرة جدًّا، وأنّ قممها تحيط الوادي بكامله وتناطح السماء أيضًا، وتجمعهما معًا على سطح مياه الخزّان، فقد حكى لي أبي ذلك مرّات عديدة (أمّا أمي فأغلب حديثها عن أشياء أخرى، كالبيوت الغارقة وبقايا فيريراس أو كنيسة فيجاميان التي يظهر برجها أحيانًا لأنّه ظلّ متماسكًا رغم المياه) قلتُ إذن، إنّ أبي وصف لي المشهد لكن تخيّله أمر مختلف عن رؤيته رأي العين كما أشاهده الآن من جديد. حقًّا ما كان لي أن أرسم مشهدا مثل هذا حتّى في الأحلام، فهو جميل جدًّا ومثير للشجن في الوقت نفسه.

نعم إنّه مشهد جميل مثل غيره من المشاهد، بغضّ النظر عن أنّ الواحدة منّا معتادة على الهضبة في بلد الوليد –وهو المكان الذي عشت فيه طوال حياتي– أكثر من تعوّدها على هذا المشهد، لكنّ هذا يؤثّر فيك بروعته وبتنوّع الألوان المستمرّ والأضواء التي تشعّ منه، حتّى إنّ مشاهدته الآن تختلف عن رؤيته في الخريف أو في

الشتاء، عندما يضعه الجليد تحت غطاء واحد فيوحّد عناصره جميعًا. وكذلك سوف تختلف رؤيته في منتصف النهار، عن رؤيته عند حلول المساء، أو عند غروب الشمس. فالأضواء تتغيّر بمرور كلّ ساعة، وبتغيّر ألوان كلّ فصل من فصول السنة، ما يجعل المشهد في حالة تحوّل دائم.

لكنّه يوحي بشيء من الرعب، أو بكثير منه، حسب اللحظة وحالة الطقس المتغيّرة أيضًا باستمرار. فعلى ارتفاع ألف متر بالقرب من السفح يلمس السحاب الأرض، وتلتبس معاينة الجبال الغارقة في مشهد ضبابيّ بسبب البخار المتصاعد من مياه الخزّان. أتذكّر أنّني في إحدى المرّات جئت مع «أوسكار» لأطلعه على هذا المشهد -وكنت قد تعرّفت إليه حديثًا- لكنّنا لم نستطع مشاهدته، إذ كان الضباب يخفي كلّ شيء. أمّا في هذا صباح فمن حسن الحظّ أنْ بدت السماء صافيةً والجبالُ كأنّها مرسومةٌ رسمًا مُتقنًا. ولا شيء يشي بأنّ هذا اليومَ يوم حزنٍ عند أسرتنا ونحن نسير جماعةً بين الحقول في اتّجاه الخزّان على الطريق المحاذي للأنفاق والأنابيب التي تظهر أحيانا وتختفي أحيانًا أخرى، ومع كلّ انعطاف تبدو كأنّها ثعبان أجبرته الطبيعة الجغرافيّة على التلوّي في مشهد مدهش حقًّا. ومن لا يعرف ماذا نفعل هنا قد يعتقد أنّنا ظللنا طريقنا، إذ لم يكن بالقرب منّا أيّ مكان مخصّص للاستراحة، بل إنّ المكان من فرط ما هو قاحل لا توجد فيه ولو

شجرة واحدة على امتداد شاطئ الخزّان.

لكنّ الجدّ اختاره، أو بالأحرى قرّر أن يُنثَرَ فيه رماده على سطح الماء، لأنّه المكان الأقرب للقرية الغارقة التي شهدت مولده. وهي على بعد مائتي متر من الشاطئ وعمقٍ يُقدّر بثلاثين مترًا، وبسبب ذلك حتّى بقاياها غارقة كلّها، وكم كانت أمّي تفضّل أن تراها آمنة.

في الأيّام القليلة الماضية بدت أمّي متأثّرة بذكريات جدّي وجدّتي، وبذكريات جيرانها، ربّما بسبب وَجْدها، ولأنّ موت جدّي وحَّدَ الجميع. لكأنّ تداعي جسمه واقترابه من التحلّل أيقظ فينا ذكريات الاندثار، وأيقظ فيها ذكريات ما كانت لتستحضرها أبدًا، أو على الأقلّ ما كانت لتستحضرها بوضوح. والحقّ أنّها لطالما اشتاقت لقريتها، تلك التي حدّثنا أهاليها مئات المرّات عن طفولتهم فيها، وعن الإحساس بالاجتثاث الذي تملّك أمّي عندما أُجبرت على الهجرة، وإذا كانت مشاعرها تلك قد ركدت منذ وقت طويل فإنّ الأمر اختلف اليوم. فبعد كلّ ما مضى من الزمن، أصبحت أمّي تتحدّث كثيرا عن هذا المكان، ولعلّ ذلك راجع إلى تقدّمها في العمر أو إلى شعورها بالوحدة، فمنذ أن سافر شقيقي إيفان وترك البيت بقيت هي وأبي وحيدَيْن هناك، وحتّى أنا لم أعد أذهب لزيارتهما بالقدر الذي يرغبان فيه. وجرّاء ذلك تشاجرنا مرارًا، وبالأخصّ لأنّني أخذت معي

مارتين، وهو حفيدهما الأوّل والوحيد حتّى هذه اللحظة.

(آه تذكّرت الآن! أرجو ألاّ ينسى أوسكار إحضاره من الحضانة! لقد حاولت تذكيره بذلك منذ لحظات، لكنه لم يرّد على اتصالي الهاتفيّ. هو مشغول ولا شكّ، لكنّ هذا يقلقني فمارتين ما يزال صغيرًا جدًّا ولا يُمكن أن يبقى في الحضانة وقتا أطول من المعتاد، لأنّه سوف يندهش من عدم رؤيتي ويبدأ في البكاء. على الأقلّ في وجود أبيه سيكون أفضل إذ سيشعر بأنّه في حمايته).

مؤسف جدًّا ألاّ يتعرّف مارتين إلى جدّه، الرجل الذي جئنا لنَدَعَه هنا -حيثُ وُلِد- برفقة أجداده وابنه، ذلك الطفل الذي مات في عمر يُماثل عمر مارتين الآن من دون أن يعرف أجداده السبب. ففي ذلك الزمن، لم يكن الطبّ متقدّما مثلما هو اليوم. وفي تلك القرى، بحسب رواية جدّتي، كان استدعاء الطبيب يستوجب الذهاب إلى مكان بعيد ما يجعله يتكلّف أموالاً كثيرة. والمُحصّلة أنّ الطفل مات وبقي جسده هنا، تحت هذه المياه الغزيرة التي لم تغرقه وحده، بل أغرقت الوادي كلّه. أجل، لقد أغرق الخزّان ستًّا من القرى أو سبعًا كأنّها زهور ربيعيّة، وإحداها قرية جدّي، وكان قد غادرها وأهلي من دون أمل في العودة.

أعتقد أنّ المعاناة من التهجير كانت رهيبة. حتّى إنّي رغم ما سمعته من جدّي ألف مرّة أرى من الصعب على الإنسان -مهما تخيّل- أن يضع نفسه مكان هؤلاء الأشخاص الذين جاءهم

آخرون في يوم ما وأعلموهم بحتميّة رحيلهم عن مكان عاشوا فيه طوال حياتهم. إنّه لمن الصعب أن يقال هذا لأناس متمسّكين بأماكنهم مثل الفلاّحين. هم مختلفون عنا نحن الذين ولدنا في المدينة، وشعورهم سيكون أعمق من شعوري مثلاً لو حدث معي الأمر نفسه، فأنا قد عشت في مكانين مختلفين: أوّلاً في بالنثيا، حتّى بلغت العاشرة، ثمّ بعد ذلك في بلد الوليد. وإذا كنت قد عانيت من الرحيل عن مكان يمكنني العودة إليه متى أشاء، لا سيّما أنّه قريب من بلد الوليد، فكم عانت أمّي يا تُرى، وأكثر منها جدّتي، بسبب تركهما قريتهما وهما موقنتان من أنّهما لن تعودا إليها أبدًا، أو بالأحرى لن ترياها على الحالة نفسها، وكم كان صعبا عليهما أن تتذكّراها طوال حياتهما.

لقد ظلّ أجدادي يتذكّرونها على حالها الذي كان قبل أن تغمرها المياه. وحتّى أمّي، رغم حداثة سنّها عندما غادرت، عادت إلى هنا مرّات عديدة لتشاهد الوادي الغارق. إنها تستحضر هذا المكان، وهي تتحدّث عنه، مليئا بالحياة وليس كما نراه الآن. وما من شكٍّ في أنّه كان أروع من منظر هذه الجبال الآن، وذلك بفضل ما فيه من نهر وجداول جارية تتخلّل المروج، وطرق ومدقّات، وقرميد أسقف بيوت القرى المدهونة بالأحمر القاني والأخضر الأكثر نضارة من المزارع المحيطة. أنا على دراية بهذا لأنّني شاهدتها في صور فوتوغرافية ولأنّني أعرف بعض

القرى التي لا تزال تعيش خلف هذا الوادي ومن الممكن مشاهدتها عند القدوم إلى هنا، باستثناء قرية بونيار، وهي الأكبر حجما في المنطقة. والحقّ أنّي لم أندهش عندما علمت بتعنّت جدّي في رفض العودة لرؤية هذا المكان.

يا له من شخص جادّ! وأي جدّية كانت على محيّاه رغم طيبته! نعم، لقد كان طيّبًا ورقيقًا مع من أحبَّهم، لكنّه منغلق على نفسه وصعب المراس في بعض الأوقات، والأرجح أنّ هذا راجع إلى حيائه، فهو شخص خجول حقًّا. ومع أنّه لا يُظهر تلك الصرامة تُجاه من يثق بهم، وأنا منهم، فإنّ سلوكه يتغيّر حين يتعلّق الأمر بأشخاص لا يعرفهم جيّدًا، كما في حالة أوسكار، (إذ استغرق لقبوله والثقة به وقتًا طويلاً جدًّا، وبدا في أوّل الأمر متوجّسًا منه) أمّا عندما يشعر بالمحبّة، فإنّه يبدو كأكرم رجل في العالم، فيعطيك كل ما يملك، بالأخصّ لو أنّك في مثل موقعي منه، فأنا حفيدته، بل أولى أحفاده قاطبةً، حتّى إذا كان -على ما أعتقد- قد تمنّى لو أنّني ذكر ليعلّمني قيادة الجرّار وكيفيّة حرث الأرض. باختصار، لطالما عاملني جدّي مُعاملة جدٍّ حقيقيّ صبورٍ ورقيقٍ في الوقت نفسه، إلى درجةٍ جعلت جيرانه يتفاجؤون من رقّته معي وتقبّله نكاتي التي لم يكن يتقبّل مثلها من أحد، وهو الرجل المعتدّ بنفسه.

لقد ظلّ محافظًا على اعتزازه بنفسه إلى أن مات. ولعلّ ذلك ما أنقذه عندما ساءت أحواله وعاش أشدّ المحنِ في أوقاتٍ معيّنة.

لكنّ اعتزازه عقّد حياته في بعض الأحيان (وكذلك حياة أسرته كلّها)، فقد كان إذا افترض أن شيئا ما أوَ أحدًا ما ليس على ما يُرام، يتمسّك بموقفه ويرفض التنازل عنه مهما فاقم ذلك من المشاكل، مُفضّلاً -حسب قوله- ألاّ يتنازل ولو كلّفه ذلك خسارة أشياء من حقّه وخوض نزاعات لا طائل من ورائها.

وكنت أحبّه بكلّ ما فيه، وأحبّ طريقته في التعامل مع الناس، فهو مهذّب دائمًا، حتّى مع أولئك الذين ينتقدونه في بعض المواقف (وأغلبها مُتعلّقة بأعماله: مشكلة ما في الريّ مع جيرانه أو دوره في تسليم المحصول لشركة السكّر على سبيل المثال)، وفي ما يخصّ ذلك كان يُردّد باستمرار أنّ أبويه علّماه الكياسة واحترام الناس. أمّا ما أعيبه عليه (مع تفهّمي أنه تعلّمه في البيت) فهو نظرته الذكوريّة. وإنّما أقول ذلك بغضّ النظر عن تعنيفه جدّتي ومن بعدها أمّي، إذ كان يفعل الأمر نفسه مع أبي.

لكن كلّ هذا انتهى الآن، ذكوريّتُه ونظرتُه كرجل طيّبٍ وكريمٍ، وكبرياؤُه وجديّتُه ولطفُه، وسرعةُ بديهتِه واستعدادُه لمساعدة الجميع، حتّى عندما بدأت آلام المفاصل تقلّل من قدرته على الحركة وأجبرته على القعود وهو الذي لم أشاهده جالسا قطّ إلاّ عند الأكل، ولوقت قصير جدًّا. فمن فرط اعتياده العمل كان إذا لم يجد ما يشغله، يختلق أيّ أمر يفعله. وأعتقد أنّ ذلك ما جعل الوقت الذي قضاه في دار المسنّين صعبًا جدًّا عليه، إذ لم يكن يفعل

شيئا سوى التنزّه وانتظار مواعيد تناول الطعام ومشاهدة التلفاز في باقي الوقت. ومن حسن الحظّ أنْ لم يمرّ عليه وقت طويل هناك، ورغم هذا أنا نادمة على أنّني لم أزره مرّات عديدة واكتفيت ببضع زيارات قصيرة. إي نعم لديّ عذر وهو أنّ أبنائي كانوا يستهلكون كلّ وقتي خلال النهار وأوسكار لا يستطيع أن يأتي معي البتّة لشدّة انهماكه في أعماله، لكن هذا ليس مبرّرًا. بالأخصّ حين يتعلّق الأمر بشخصين (جدّتي وجدّي) لطالما استقبلاني بكلّ محبة، حتى عندما كبرت وما عُدتُ أزورهما كثيرا كعهدي وأنا مراهقة. لقد تعوّدت أن أقضي معهم ثلاثة أشهر كاملة في الصيف إضافة إلى إجازات أعياد الميلاد لكن الحياة عقّدت كل شيء. الحياة ونحن أيضًا، فسرعان ما تفرّقنا ونسينا الأشخاص الذين نحبّهم وتركناهم من أجل أشياء أقلّ أهمّيّة. ثم انقلبنا نادمين.

آسفة يا جدّي، لأنني فعلت ما فعلت. أنت تعرف حبّي الكبير لك، وأعدك أن آتي باستمرار إلى هذا الوادي ومعي زهور كلّما أُتيح لي ذلك، فجميع ما أصبح لي الآن بفضلك أنت.

راكيل

أودّ لو أتوحّد وهذا المكان، أودّ أن أشعر تجاهه بمثل ما تشعر به أمّي وجدّتي عند تأمّلهما هذه الربوع العظيمة التي شهدت مولد كلّ منهما ومن خلالها اكتشفتا الدنيا. مؤكّد أنّ الاطّلاع عليها أمر رائع لأيّ شخص فعلى الأقلّ سيكون تأثيرها فيه أفضل من أيّ مدينة، وهذا ما حدث لي بالضبط.

لكنّني، والحقّ يُقال، لا أشعر بالانتماء إلى هذا المكان. أو بالأحرى، أشعر بأنّني أنتمي إلى أمكنة عديدة، وليس ثمّة بينها ما يُمثّلني أكثر من البقيّة. حتّى بلد الوليد المدينة التي عشت فيها قبل أن أنتقل إلى مدريد هربًا من الضجر. (وإنّ من الأماكن ما يَثْقُل على النفس.)

لكن وأنا هناك لم يكن يهمّني أن أشعر بالانتماء إلى هنا. ففي جميع الأحوال يمكنني أن أحسّ ذلك، مادامت شراييني تجري فيها دماء من هذه الجبال. دماء تشعّ منها رائحة الجليد والغابات القديمة، مثل التي تجري في عروق أمّي وشرايين جدّتي وأيضًا تلك التي كانت تجري في شرايين جدّي. وأحسبها تفسّر لي أشياء

كثيرة عنه.

يقول أبي إنّ جدّي كان رجلاً غير عاديّ، أمّا أنا فأراه أكثر من ذلك. أعتقد أنّه كان ينتمي إلى ثقافة أخرى ونجح في نقلها إلى أولاده. فأمّي أيضًا تنتمي إلى تلك الثقافة -وأنا أودّ لو أكون مثلها- وقد يكون هذا ما جعلني أجد صعوبة في فهمها.

ربّما يجب عليّ أن أزور هذه الجبال مرّات كثيرة. مادام الجَدّ سوف يبقى في مُستقرّه النهائيّ هنا وإلى الأبد. عليّ أن آتي إلى هذا المكان كي تغمرني روحه التي تثير فيّ الشجن بغضّ النظر عن أيّ شيء آخر. على الأقلّ هذا ما أتخيّله من دون أن أعرف ما إذا كان حقيقة أم لا. فمن الممكن أنّ هناك بشرًا لا يشعرون به على الإطلاق، كما حدث لي زمنًا طويلاً قبل أن يبدأ إدراكي لأمور معيّنة. لقد ظللت سنوات عديدة أعتقد أنّ أمّي وجدّي عاشا ذكريات وحاولا جعلها مشاعر حقيقيّة. ولكن جاءت لحظة فهمت فيها أنّ ذلك كان حقيقةً، حقيقة واقعة مثل تلك الجبال وتلك الأحجار الكلسيّة المحيطة بالخزّان وما حوله من مياه، المنعكسة على سطحها عندما تكون ساكنة. فهمتُ ما فهمتُ عندما شاهدت جدّتي -حين رافقتها في إحدى المرّات ليلاً- تُجهش بالبكاء بمجرّد أن رأتها تلوح في الأفق وشاهدت أيضًا عينيْ أمّي تغرورق بالدمع من دون أن تجرؤ على البكاء الصريح مثلها. وها قد أكّد لي جدّي ما أدركته بإصراره على العودة (مثل

«عوليس» عندما عاد إلى إيثاكا مسقط رأسه) حتّى لو جاءت عودته على هيئة رماد. ففي نهاية الأمر، المهمّ هو العودة، وليس مُهمًّا لماذا ولا كيف.

من وجهة نظري كان الجدّ حياةً كاملةً. إنّه «عوليس» فلاّح وريفيّ تلخّصت كلّ أحلامه في العودة إلى هذا المكان الذي ولد فيه، مع أنّ الآخرين توقّعوا منه غير ذلك. إنّ عظام أجداده وأهله ترقد تحت مياه الخزّان، حتّى الأرواح التي ماتت في الزمن البعيد (قرأت في إحدى المرّات كتابًا ورد فيه أنّه لو تمّ دفن أحد الأشخاص بعيدًا عن المكان الذي أراده، فإنّ الروح تنفصل عن الجسد وتطير إلى ذلك المكان وتظلّ على حالة الانفصال تلك)، ما هو حقيقيّ أيضًا ألاّ وجود لأحد يمكنه أن يصلّي من أجله بعد أن نعود نحن من حيث جئنا. لكن يبدو أنّ جدّي لم يكن يهمّه هذا. إنّه مثل عوليس، لم يُرد شيئًا سوى العودة إلى البيت من دون أن يُبالي باندثار «إيثاكا»ـه، وبأنّ «بينولوبيـ»ـه ليست معه لترافقه كما رافقته دومًا مثل ظلّ وفيّ، أو امتداد لجسده.

نعم أشعر بالألم من أجل جدّتي. فجدّي انتهت معاناته، واستطاع أن يحصل على ما أراد: العودة إلى المكان الذي شهد مولده، أمّا جدّتي فعليها منذ الآن أن تواجه وحدتها، وسوف تكون أقسى من وحدة بينلوبي، لأنّ «عوليسـ»ها لن يعود، لقد ذهب إلى الأبد ولم يتبقّ منه سوى رماده. رماد سرعان ما ستبتلعه

مياه الخزّان مثل معظم الأشياء التي أحبّتها جدّتي وما تزال تحبّها.

أتذكّر أنّي وأنا طفلة صغيرة كنت أذهب إلى البحيرة في إجازات الصيف، وهناك، دأبَت جدّتي أن تحكي لي قصصًا رائعةً كي أنام. إنّها قصص قديمة جدًّا، قصّوها عليها عندما كانت طفلة في مثل سنّي وقتئذ. في ظلال الغرفة، والباب موارب ليسمح بدخول بعض الضوء من قاعة الجلوس، كنت ألتفّ بالشراشف وعيناي مفتوحتان عن آخرهما، أصغي لحكايات هؤلاء الرجال المتجوّلين، والحيوانات التي تتكلّم وتسير كالبشر، وأسمع أصوات الموتى إذ يعودون من قبورهم للمطالبة بأملاكهم، وكنوزهم، وأتمثّل النوافير المسحورة التي تسكنها الجنيّات وشخصيّات شبحيّة. وبحسب مُخيّلتي وقتئذ كانت مُجريات تلك الحكايات تحدث هنا، في هذا الوادي القديم المليء بالغابات الكبيرة الرائعة (وفقًا لمقولات جدّتي، إذ لم أكن قد عرفتها بعد) فجعلت أتخيّلها كلّ ليلة بطريقة مختلفة عن سابقتها: مرّة خضراء مليئة بالناس ومرّة أخرى مُقفرة وتكاد تخلو من أيّ مظهر للحياة. ومن بين كلّ تلك الحكايات، ومعظمها كان مرعبًا، (حتّى التي تبدو بريئة منها) ما أتذكّره جيّدًا هو حكاية تتحدّث عن اثنين فقدا طريقهما في أحد الجبال، ولأنّهما لم يعثرا على طريق العودة تحوّلا إلى كتلة من الجليد وظلاّ على تلك الحال إلى الأبد، يسيران من دون أن يتحرّكا من مكانهما. ولا أدري لماذا تذكّرني هذه الحكاية

بجدّي وجدّتي، رغم أنّي لم أناقش ذلك وإيّاهما قطّ، ولن أناقشه أبدًا. بالطبع لن أناقشه مع جدّي لأنّه لم يعد موجودًا، ولن أناقشه مع جدّتي لأنّها سوف تبكي ولا شكّ. والحقّ أنّها أصبحت تبكي مؤخّرا لأيّ سبب. ربّما بحكم السنّ، أو جرّاء الوحدة، فهي تُضعف الانسان جدّا. وأنا أيضًا أبكي بسهولة مع أنّني ما زلت شابّة. أبكي عندما أكون وحدي، ورغم ذلك أرغب باستمرار في البقاء وحيدة (إذ ما يزال أمامي وقت قبل أن أُعقّد حياتي مثل أختي). أمّا دوافعي للبكاء فمختلفة جدًّا، ومن ضمنها غروب الشمس، أو مشهد في فيلم سينمائي، أو موسيقى أسمعها في حانة وتذكّرني بشخص ما... وفي المُقابل جدّتي ليست مثلي بل مثل أمّي وكلّ النساء اللاتي أعرفهنّ (عدا بعض الصديقات)، فجميعهنّ يبكين دومًا بسبب أبنائهن، ومن أجل آبائهن. نعم، هنّ يبكين بسبب أشخاص آخرين، ولا يبكين بسبب أنفسهن، فجدّتي على سبيل المثال أمضت يومين تبكي زوجها، وأمّي أيضًا تبكي أباها، لكن ليس فيهما واحدة تبكي من أجل نفسها، وكلتاهما تستحقّ ذلك، فبعد رحيل جدّي إحداهما أصبحت أرملة والأخرى يتيمةً.

لم أفهم أمّي قطّ. فهي لا تزال شابّة، لكنّها تبدو كأنّ بيني وبينها مائتي عام. جدّي على الأقلّ كان يفصلني عنه عالم كامل، هو ذاك الذي عاشه مع جدّتي طوال حياته، أمّا أمّي، فرغم تعلّمها

في هذا العالم، عالم المدينة والحداثة، عالم إسبانيا اليوم لا إسبانيا ما بعد الحرب الأهليّة التي ظلّت -على ما أعتقد- محفورة في عقول من عاشوها، أقول رغم ذلك، يبدو لي أنّ أمي لم تتخلّص من عالم جدّي القديم، والحال أنّه اختفى نهائيًّا. فعدا خالي أجوستين، لم يبقَ في البحيرة أيّ من أشقّائها الأحياء، وزيادة على ذلك هو لم يعد يعمل في الزراعة.

ثمّة آخرون أصابهم اليُتم هم أيضًا، أمّي بالطبع -وهي أعمقهم شعورًا بذلك- وأخواه الآخران، الخالة فيرخينيا والخال طونيو، ولا بدّ من القول إنّي لم أشاهدهما منذ فترة طويلة. فكلّ منهما لديه أسرته، أمّا المسكين اجوستين فوحيد تماما. صحيح أنّه بقيت له أمّه، لكن لا أحد منهما يقوى على رعاية نفسه وتبعًا لذلك لا يستطيع رعاية الآخر. وهو ما اضطرّ أمّي للقيام بهذه المُهمّة، كما جرت العادة، (مادامت تعيش في المكان الأقرب لهما). إنّها مُطالبة بزيارة جدّتي في نهاية كل أسبوعين والاهتمام بالخال أجوستين. تُرى كيف تستطيع القيام بتلك المهمّات؟ فخالي غير قادر على فعل أيّ شيء بنفسه، وزوجته أيضًا مثله، وعلى أمّي أن تقوم بكلّ ما يلزم.

هذا هو الوضع، إنّها عائلة أو لنقل ما تبقّى من عائلة فلاحيّة أُجبرت على ترك أرضها والحياة بعيدًا في سهل وسط الهضبة، عند ذلك التلّ الذي تخفيه هذه الجبال حتّى لحظتنا الراهنة. لذا لم

تدهشني رغبة جدّي في العودة إلى هنا، إلى هذا الوادي الغارق تحت المياه، المياه التي لا تزال تطفو على سطحها ذكرياته، أحلامه كلّها وتطلّعاته كلّها. لم تكن قليلة، لكنّها كانت من المُمكن تحقيقها، وأهمّها الحفاظ على الرفاه الماديّ لأسرته، والحياة في هدوء، وأن يُدفن هنا إلى جوار أسلافه، مثل أبويه وأجداده الذين رحلوا قبله. فأمّا هدفاه الأوّل والثاني فقد تمكّن من تحقيقهما، وأمّا هدفه الأخير فها إنّه يتحقّق الآن، مع اختلاف واحد بين مصيره ومصير أجداده هو أنّ الأرض لن تمنحه قبرًا بل ماءً، هذه المياه الزرقاء الساكنة التي تغطّي كلّ أعماق الوادي، حتّى إنّه لم يعد فيه شيء يذكّره بالماضي عدا الطرقات، لا يوجد شيء يذكّر بما كان من حياة هنا: قرى وعوائل لهم بيوتهم وجيرانهم ومواشيهم، وأحلامهم... تُرى أيّ إحساس يمكن أن ينتابه بعد أن وُلد هنا وعاش بينهم ثم شاهد كلّ شيء يختفي فجأة.

لكن مهما يكن من أمر هذه ضرورة التقدّم، تلك العجلة الكبرى التي تحرّك التاريخ وتتحرّك باستمرار نحو الأمام -حتّى لو تسبّب ذلك في آلام الكثيرين وتغيير حياتهم مثلما حدث لعائلتي- فبفضلها تحوّل جدّي إلى «عوليس» وصرت أنا من أنا الآن. تُرى أيّ حياة كُنت سأحياها لو لم تتداخل مسيرة عائلتي وقرار أحد المهندسين إذ أمر بوقف جريان النهر والزمن؟ ربّما ما كنت وجدت أصلاً.

خوسيه أنطونيو

تُرى كم من الزمن مرّ من دون أن أعود إلى هنا؟! إنّه زمن طويل حتّى إنّني ما عدتُ أتذكّر مقداره.

لكن كلّ شيء ما يزال على حاله، هو ذا الوادي كما كان دومًا، وربّما أخضر من المُعتاد. يبدو أنّ هذا الربيع شهد أمطارًا غزيرةً.

آخر مرّة جئت فيها إلى هنا كنت برفقة أمّي وإخوتي الثلاثة. وجئت قبلها مع «إلينا» وقبلها أيضًا مرّتين مع إخوتي. لكنّي الآن أُدرك أنّ زمنًا طويلاً مرّ من دون أن آتي. عند عبور بونيار انتبهت إلى تغييرات كثيرة حدثت في القرية طوال هذا الزمن.

ما قُلته لا يعني أنّي أمتلك ذكرياتٍ واضحةً لتلك الأمكنة. فحينما ذهبت من هنا كانت القرية ما تزال صغيرة، ورغم احتفاظي ببعض الذكريات لـ«فيريراس» (بالأخصّ شوارعها والحقول المحيطة بها) لا أستطيع تحديد مواقعها أو اتّجاهاتها لو أنّهم جفّفوا مياه الخزّان فجأةً وعادت القرية كما كانت من قبل. والأمر سيّان في ما يخصّ الوادي. لم يكن سنّي يسمح لي بالخروج من هناك، حتّى إنّ أسماء القرى الأخرى لم تعْدُ عندي مجُرّد ألفاظ

سمعتُها من الناس. القرية الوحيدة التي علق اسمها بذاكرتي هي «فيجاميان» فقد كانت أكبر من كلّ القرى الأخرى، وتقع بالقرب من مجرى النهر في وسط الوادي الرئيسي، ما جعلها الأقرب إليّ. ولقد ذهبتُ إليها مع أبي مرّات عديدة إمّا لقضاء بعض الحاجات أو لزيارة عمّة له كانت تعيش هناك. لكنّي لم أعد أتذكّر أيّ شيء آخر له أهميّة تُذكر. كلّ ما أذكّره أنّ الساحة كان فيها عدد من الأشجار وأنّ الكنيسة كانت ذات برجٍ مائلٍ.

كانت «فيجاميان» أوّل قرية غمرتها مياه الخزّان، حسب ما ذكروه لي، وجرّاء ذلك غرقت كلّها. أمّا القرى الأخرى البعيدة عن مجرى النهر والأكثر منها ارتفاعًا، فظلّت تعود للظهور كلّما انخفض منسوب المياه. لم يهدموا «فيجاميان»، وبقيَت بيوتها مغمورة تحت الماء؛ وأعتقد أنّ بعضها مازالت في مكانها وعلى حالها، وأغلبها تهدّمت تهدّمًا كاملاً أو جزئيًّا، مثل الكنيسة، بحسب ما شاهده الناس قبل سنوات، عندما أفرغوا مياه الخزّان -لتنظيف الوادي من الطمي المتراكم الذي كان يُقلّل من جدوى الخزّان ويكاد يُلغيها- وظهر الوادي الميّت إلى العيان. جرى ذلك عندما جئت مع «إلينا» (في تلك المرّة رفضت أمّي الحضور، على عكس المرّات السابقة، وهو أمر تفّهمته جيّدًا) وظللنا أمسية كاملة نجوب بقيّة قرية فيجاميان، والتقينا مرارًا أشخاصًا من سكّانها، وكان أكثرهم يبكون. ثمّ صعدنا إلى هنا أيضًا، إلى حيث

كانت «فيريراس» قائمة لكنّنا لم نشاهد سوى الأحجار وجدارٍ مميّزٍ لأحد الإسطبلات بين كلّ هذه الأطلال، ولا شيء أكثر من ذلك. لم يكن هناك أيّ بيت ولا أيّ قرميدة لم يهدمها الخزّان. ذاك هو كلّ ما تبقّى من قرية «فيريراس» التي وُلِدتُ فيها وعشتُ حتّى بلغتُ الثالثة عشرة من عمري، مجرّد مسبحة من الأحجار المتناثرة التي لوّنها الخزّان بلون الطمي. لقد وحّد الخزّان لون الأشياء جميعًا بعد خمسة عشر عامًا قضّتها تحت الماء، تحوّل خلالها الأوكسيد إلى مادّة ملتصقة بها، فاصطبغ كلّ شيء بلون الأرض، ذلك اللون الضارب إلى الحمرة الحزينة الذي يشبه طين الآبار. وهو يشبه إلى حدّ ما لون حقول البحيرة عندما كان الطمي يظهر في الشتاء ويغمر كلّ شيء. لكن هنا كان الطمي جافًّا، فبعد تعرّضه للشمس أيّامًا عديدةً جفّ وتشقّق وصار كأنّه جلدُ شاةٍ قديمٌ، بالأخصّ في المناطق التي انحسر عنها الماء قبل غيرها. حتّى إنّ الواحدَ منّا كان يستطيع المشي في شوارع عديدةٍ من دون أن تنغرس أقدامه في الطين، مع أنّ الوادي غارق في الطمي.

أمّا الآن فكلّ شيء يجب أن يكون على هذا النحو. تحت مرآة الماء الممتدّة، لأنّ كل شيء قد غطّاه الطمي، من حافة الخزّان حتّى مجرى النهر. والحقّ أنّ ما أثارني في تلك المرّة (عندما هبطنا إلى فيجاميان لنشهد بقاياها عن قرب) هو اكتشافي أنّ النهر لا يزال يجري في مجراه القديم، هناك تحت القنطرة التي ظلّت موجودة،

كدأبها منذ أن خلق الله العالم. وماذا تعني له مائة عام، أو ستّة عشر (وهي عمر الخزّان) حتّى يُغيّر مجراه واتّجاهه بعد آلاف من السنوات حافظ فيها عليه! وإنّي أحسبه سوف يستمرّ على هذا النحو، يجري في مجراه كما تعوّد أن يفعل رغم التيّارات وملايين الأمتار المكعّبة التي تغطّيه الآن، وكذلك الطرق أيضًا، إي نعم هي حديثة العهد لكنّها الآن في حالة دمارٍ كاملٍ، ورغم ذلك ما تزال مسالكها في الاتّجاهات نفسها التي كانت عند إنشائها.

أصرّت أمّي على أن نهبط حتّى الشاطئ، أو بالأحرى إلى حيث يسمح الخزّان في هذه اللحظة باستمرار وجوده. فمنذ إنشاء الخزّان لم يهتمّ أحد بترميم هذه الطرق لأنّها لم تعد تؤدّي إلى أيّ مكان. وأحسب أمّي وأبي قد فكّرا في الأمر من قبل، وتبعًا لذلك قرّرت هي أنّ هذا هو المكان الأقرب من «فيريراس.» وكنّا قد وصلنا إلى هنا بعد أن هبطنا من جبلٍ لم يترك الخزّان سوى نصفه، إذ صار الباقي يرقد تحت الماء. «فيريراس» إذن تقع عند سفح هذا الجبل، في المكان الذي كان يلتقي فيه مجرى فرعي «أرينتيرو» و«كينتانيا» والحواف العليا من «أرينتيرو». هما ما يزالان هناك، لكنّهما يرقدان الآن تحت الماء مثل نهر البورما، ذلك النهر الذي شكّل الوادي إذ جعله مصبّه، مثله مثل نهاية الطريق. عمومًا ما تزال الحياة مستمرّة تحت مياه الخزّان، والموت أيضًا، وهذا بالطبع يتحدّد حسب نظرة كلّ واحد منّا.

ذاك هو المكان الذي يريد أبي أن يصل إليه. ليبقى مع النهر والطريق القديمة، مع الأسماك التي تسكن الوادي الآن كما كانت تسكنه من قبل وتتغذّى فيه، هي والأغنام والأبقار وأنواع أخرى من الحيوانات البرّيّة. سوف يرقد أبي معها إلى الأبد كما رقد آخرون غيره من الجيران، حتّى ابنه البكر، ذلك الذي وُلِد مريضًا. كان اسمه «فالنتين» وهو أوّل نسل الأسرة. سوف يكون في انتظار وصوله ويرافقه ابتداءً من اليوم. أمّا عدا ذلك من الأمور فقد فعلناها في حياته، فينا من قدّم له أكثر من الآخرين وفينا من قدّم أقلّ، وفقًا لظروف كلّ واحدٍ وطريقته في الحياة.

أنا على سبيل المثال، عملتُ معه في الزراعة حتّى بلغتُ الحادية والعشرين من عمري، ثمّ ذهبتُ لأداء الخدمة العسكريّة فغيّر ذلك حياتي كُلّيًّا. لقد أدّيتُ الخدمة العسكريّة في برشلونة، وهناك عرفت «إلينا» واستقررت نهائيًّا. ومنذئذ عدتُ إلى البحيرة مرّات عديدة (فعلتُ ذلك كثيرًا في سنواتي الأولى هناك ثمّ قلّت زياراتي مع مرور الزمن، هذه حقيقة لا أُنكرها) لكنّي كنتُ مُهتمًّا بأبويّ، ربّما ليس كما يجب، وهذه أيضًا حقيقة، إذ لم أُبدِ من الاهتمام بهما مثل ما أبدى أجوستين، فهو بقي معهما حتّى النهاية (والحال أنّ المسكين لم يكن يستطيع عمل الكثير من أجلهما)، أمّا تريسا فكانت أكثرنا اهتماما بالأسرة، بوصفها الأخت الكبرى. لكن ما فعَلَتْه لم يبلغ القدر الذي أرادت. وأيضًا لطالما اعتقدت أنّنا كنّا

نتجاهل واجبنا تجاه أبوينا في كثير من الأحيان، بالأخصّ عندما اضطرّا إلى اتّخاذ قرار صعب إلى حدٍّ جعل وجودنا بالقرب منهما ضروريًّا. وفي حقيقة الأمر، لو نظرنا إلى حالتي على الأقلّ، لوجدنا أنّني بذلت جهدي قدر استطاعتي. فأنا لست مثلها كلّ ما يفصلني عن «بالنثيا» مسافة يستغرق قطعها نصف ساعة فقط، وليس لديّ شخص يرافقني حيثما أذهب. فـ«إلينا» لها عملها الخاصّ، ولها أيضًا أسرة تحتاج إلى رعايتها.

وخلاصة القول إنّي لسبب أو لآخر لم أتعامل مع أبويّ كما كنت أودّ، ولكن هذا لا يعني أنّني لم أهتمّ بهما ولم أُتابع حاجاتهما. كلاّ، بالعكس، أنا لم أفقد إحساسي تجاههما حتّى النهاية. وكيف لي ألاّ أُكنّ لهما أيّ إحساس وقد عانيتُ من أجلهما في الكثير من الأحيان، لا سيّما أوّل ما بدأت العيش في «كتالونيا»، بسبب المسافة التي كانت تفصلني عنهما. أعرف أنّ أبويّ كانا يشتاقان إليّ خلال غربتي أكثر من أي وقت آخر، وإن لم يقولا لي ذلك قولاً صريحًا، وأعتقد أنّ رغبتهما في رؤيتي كانت أكبر من رغبتي في رؤيتهما، لكني متأكّد من تفهّمهما لظروفي في غربتي، فقد ظلّ بيننا شعور متبادل. إنّ الحياة معقّدة (ونحن نزيدها تعقيدًا) وما نريده في كثير من الأحيان ليس هو ما نستطيع أن نفعله. وأظنّ ظِلال التجربة التي عشنا موجودة في علاقتي بأبويّ، ونحن نضع الآن نهايتها، فما حدث هنا لم يغيّر حياتهما فقط بل أثّر في حياة أبنائهما،

إذ وقع ما وقع ونحن لا نزال في طور الطفولة أو المراهقة. وما كنّا نستطيع أن نعترض على ما حدث، فلبثنا نفعل ما كانا يفعلان، وما سيفعل أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا، أحفاد أولئك الأطفال الذين ذهبوا على ظهر شاحنة انطلقت بهم في صباح أحد الأيّام من البحيرة إلى حيث بدؤوا حياتهم الجديدة منذ ذلك الوقت.

لو سلّمنا بأنّ ما جرى مصيرٌ فقد اكتمل ولكن بطريقة معكوسة. فالبحيرة كانت وطنَنا الجديد، لكن ليس وطنًا يستقبل مجموعة من المساكين الذين طردوهم من قراهم بالقوّة (وهو أمر حدث فعلًا في بعض الأحيان، إذ حكت أمّي أنّ إحدى النساء رفضت التهجير واضطرّ رجال الحرس المدنيّ إلى جرّها على الأرض بالقوة فيما كانت المياه تقترب من قريتها)، لكن هذه القرية الجديدة التي بزغت هنا، بين هذه الجبال الخضراء، خلقت واقعًا جديدًا مناقضًا لكلّ ما واجهته تلك العائلات من أوضاع مؤلمة. والمُحصّلة أنّ بحيرةً طردتهم من قراهم وأخرى احتضنتهم هنا. وهذا ما لم يتمكّن كلّ هؤلاء الرجال والنساء من فهمه، فقد اعتادوا استخدام الماء في أعمالهم، لكنّهم لطالما احترموا مجرى النهر ومعتقداتهم التي ترتبط به. وفي تقديرهم هو يتّجه إلى مكانه منذ أن خلق الله الكون، والبحيرات تحتل مكانها المعروف من دون تدخّل أحد منذ ملايين السنين، فلماذا نُغيّر الأماكن ونبدّلها، هل أخطأ الله في توزيعها على أماكنها.

لكن مجرّد طرح هذه الأسئلة أمام مهندس بناء الخزّان يُثير سخريته. فما يهمّ المهندس، فضلاً عن تلقّي راتبه عند نهاية كلّ شهر، هو أن يترك بصمته في الطبيعة. هل توجد متعة أكبر من تغيير العالم حسب هواه مادام يمكنه تنفيذ ذلك بالفعل؟ لا أقول إنّ المهندسين جميعهم يمارسون أعمالهم بلا رحمة أو تفكير في الآخرين فابني الأكبر أيضًا مهندس، (تُرى هل كان لأحد أن يذكّرني بذلك؟) لكن هناك الكثير من المهندسين الذين يمارسون أعمالهم كأنّهم آلهة وليسوا بشرًا، ويعتقدون أنّهم خارقون ويمكنهم تعديل مسار الطبيعة. والمؤسف أنّني من خلال عملي عرفت بعض هؤلاء، وأحسبهم غير كثيرين.

من حسن حظّ أبي أنّه لم يعرف قطّ أحدًا من هؤلاء، وأُعفيَ من تحمّل تعالي بعض الأشخاص الذين يتعاملون مع الآخرين بوصفهم أقلّ منهم، حتّى عندما تسبّبوا في إصابته بالأذى من خلال تصرّفاتهم. لقد كان أكثر منّي حظًّا، إذ قصر اهتمامه على حقله وزراعته (كدّه الأبديّ) رافضًا أن يُمارس أيّ عمل آخر، وحين وجد نفسه مجبرًا على ترك مسقط رأسه، ظلّ مُقتنعًا بأنّه لن يمارس أيّ نشاط آخر مهما تغيّرت أمكنة إقامته أو طوّح به القدر. في المُقابل استغلّ بعض أقاربه ذاك الانتقال ليغيّروا مهنتهم أيضًا. شقيقه خوان، على سبيل المثال، عمل بوّابًا لإحدى البنايات في ليون، وآخرون عملوا في بعض الشركات، سائقين وحرّاسًا، أو

أيّ شُغل يجدونه، حتّى يتركوا أعمال الحقل والزراعة. أمّا أبي فلم يخطر له لحظةً أن يعمل عملاً آخر، رغم أنّه انتقل إلى محافظة أخرى وأرض أخرى، من الجبل إلى السهل المنبسط، ومن السفوح الرطبة الدائمة الخُضرة إلى هذه الأرض المشمسة باستمرار في حقول «بالنثيا». لم يُفكّر ولو مجرد التفكير في تغيير مهنة المزارع، مهنته ومهنة أجداده منذُ أجيال لا تعدّ. وكان من الممكن أن تُصبح مهنتي أنا أيضًا لو لم يأخذني القدر إلى مسارات أخرى.

وأنا أفكّر في هذا الآن أجد أنّي لم أتساءل من قبل كيف انتهى بي الحال في برشلونة بعيدًا جدًّا عن الأماكن التي وُلدتُ وترعرعت فيها؟ ولا كيف امتهنت مهنة أخرى لم تخطر على بالي قطّ هي مهنة النادل؟ والحقّ أنّ ذلك حدث بمشيئة القدر، فقد جاءتني فرصة العمل من خلال يانصيب وضعه أحدهم في معسكر التجنيد وكانت نتيجته أن تغيّرت حياتي تمامًا. ربّما لو أصاب حظّ اليانصيب هذا شخصًا آخر لبقيت على حالي وعدت للحياة في «بالنثيا»، وركّزتُ في مهنتي، مُزارعًا مثل أبي. هو أيضًا أصابه القدر بشيء من التغيير لكنّه ظلّ محافظًا على إرث العائلة ولم يتخلَّ عنه إلا بالتقاعد، ومع ذلك لا أحد من أبنائه حذا حذوه؛ إذ لم يُرد أيّ منّا مواصلة العمل في الحقل.

وهكذا انتهت إلى الأبد -بتقاعد والديّ- مهنة مارستها

عائلتي على امتداد أجيال، ويمكن القول إنّها امتدّت قرونًا عديدةً. فطبقًا لما سمعته أكثر من مرّة، لم تحفظ ذاكرة عائلتي مهنة أخرى، بل كان كلّ أفرادها من مزارعي هذا الوادي ونهر البورما، وكثير من سكان «كوروينيا» (حتى منتصف القرن الماضي لم يكن أحد ينتقل من مسقط رأسه إلاّ بالزواج، وفي أغلب الأحيان لم يكونوا يذهبون بعيدًا للبحث عن زوجة). وأبواي هما أوّل من كسر هذه العادة، ليس برغبة منهما، بل بسبب حظهما في الحياة، حين قُدّر لهم أن ينتقلوا للعيش في الأرض الجديدة، ليفلحوها ويُواصلوا ما كان من حياتهم.

الآن ليس مهمًّا النظر إلى الماضي من الزمن إلاّ للترحّم عليه، ماضي التنقّل والعمل الشاقّ والأيّام الطويلة من طلوع الشمس حتّى غروبها (أو من الصقيع حتّى الصقيع الآخر، في الشتاء)، هكذا كان أبواي، في صراع دائم من أجل الحياة، حتّى النهاية. وإن كان بعضنا قد وجدوا حياة أسهل فذلك يعود إليهما. بفضل جهدهما تمكّنت شقيقتي «فيرخينيا الابنة» من مواصلة الدراسة، أمّا تريسا وأنا فعندما كنّا مؤهّلين لاتّخاذ المسار الدراسيّ نفسه لم تتوفّر الأموال الكافية، وتبعًا لذلك تأخّرنا في الحصول على حياة أفضل رغم عملنا مع أبويّ خلال كلّ السنوات التي عاشاها هنا، قبل أن تفرض علينا الحياة أن ننطلق كالطيور في الربيع بحثا عن حياة أفضل، من دون أن نملك أيّ نوع من المساعدة. وإن لم يكن

لدينا فائض حياة فقد عشنا بما فيه الكفاية.

عندما أحكي ذلك لأبنائي، يجدون كلماتي غريبةً، حكايات رجل ينتمي إلى ما قبل الحداثة أو لم يلحق بركبها. كيف يمكنني أن أفسّر الأمر لهم؟ لم يكن الزمن الذي مرّ قبل أن يولدوا طويلاً حتّى يمكن عدّ ما عشناه مجرّد حكايات تاريخيّة. هكذا كان الناس يعيشون قبل قرن أو اثنين، وهنا في البحيرة يواصلون الحياة على المنوال نفسه. هناك فحسب بدأت الحياة تتغيّر، لكن في وقت متأخر بعض الشيء وبعد جهد كبير من أجل ذلك. وكان جدّ أبنائي وجدّتهم من بدآ ذاك التغيير بجهدهما وعرقهما. ولهذا نحن ندين لهما بالاحترام، احترام كالذي أُكنّه لهما أنا، وللأسف لم يحظيا به من بعض الآخرين أمثال المهندسين الذين لم يقدّروهما حق قدرهما إذ استولوا على أراضيهما وطفقوا يحفرونها لبناء الخزان. وكانت الماركيزة المالكة لأرض البحيرة قد باعتها وحصلت على أموالها، لكنّ والدي وغيره من الفلاحين لم يشاهدوها قطّ، ولا يعرفونها، فالإجراءات كلّها تمّت عبر مدير أملاكها، وكان رجلا طيّبًا، حسب قول أبي، يعطف عليهم بوصفهم فقراء لكنّه لم يملك أيّ شيء يفعله من أجل مساعدتهم. وفي إطار هذا الاحترام الذي أرجو ألّا يُفقد أبدًا يتنزّل حضورنا اليوم إلى هنا، على حافة خزّان يبدو كبحيرة سويسريّة أكثر من كونه مقبرةً مائيّةً، ترى فيها الماء ساكنًا، مرافقًا أبي في عودته النهائيّة إلى أرضٍ كانت ملكه وما

تزال، وهي كذلك بالنسبة لي وإن بمقدارٍ أقلّ. وأودّ أن تكون كذلك بالنسبة لأبنائي أيضًا رغم عدم معرفتهم بالقرية التي وُلد فيها والدُهما وخرج منها مبكّرا كما خرجت عائلته، بحثًا عمّا كانوا يملكونه وأخذه منهم القدر مثلما يفعل هذا النهر الهائج، إذا خرج عن مجراه يأخذ كلّ شيء في طريقه.

ارقد في سلام يا أبي. كلّ ما جنيته لك، وأزيد.

إلينا

أشعر بأنّي غريبة بين أفراد هذه العائلة. لطالما انتابني هذا الشعور، وأعتقد أنهم يبادلونني إيّاه ويرونني بالفعل كذلك. هم يحترمونني لأنّي زوجة خوسيه أنطونيو، لكنهم يعدّونني غريبةً من دون أن يُصرّحوا بالأمر أمامي. وأحسبهم لن يفعلوا ذلك أبدًا.

أعرف أنّ هذا هو الحال. كما أعرف أنّهم يعيشون خارج الواقع، مُلتصقين بذكريات غير منطقيّة، ولا يتقبّلون حقيقة أنّ هذا المكان قد اختفى بالفعل ولا يمكنهم العودة إليه إلاّ في مثل حالة حمي، أي عندما يموتون. أنا حقًّا أتفهّم مشاعرهم ونزوعهم إلى الارتباط بجذورهم ورغبتهم في الحفاظ على حبّهم لهذه الأرض التي كانت مُلكًا لهم وانتزعوها منهم، لكنّي أراها مشاعر مبالغ فيها، ومهما استمرّت سوف تنتهي مع مرور الزمن.

ربما مردّ هذا إلى أنّني لم أُشاركهم تجربتهم. وربما لأنّ حياتي لا تشبهُ حياتهم في أيّ شيء (فأبواي وأجدادي ولدوا جميعهم في برشلونة، وأنا لم أعرف أيّ مكان آخر غير مدينتي) ولقد جعلني ذلك أرى الأشياء بطريقة أخرى، لا أقول إنّها أفضل من رؤيتهم

ولا أسوأ، كلّ ما في الأمر أنّها رؤية مُغايرة. حتّى مع زوجي أشعر في بعض الأحيان بوجود فارق كبير يفصلني عنه، فارق مُرتبط بمسار حياة كلّ منّا وطريقتينا المُختلفتين في التفكير، أو على الأقلّ هذا ما أشعر به أنا.

أنا على سبيل المثال، لا أفهم كيف لشخصٍ أن يظلّ مرتبطًا بحياة عاشها في الماضي حتّى بعد انتقاله إلى مكانٍ آخر بدلًا من أن يتطلّع إلى المستقبل مثل الآخرين. حَمِي وحماتي عاشا على هذا النحو، وأبناؤهما أيضًا، صحيح أنّهم لم يصلوا إلى الحالة نفسها بالضبط ولكنّهم كانوا مثل أبويهم. وأظنّ خوسيه أنطونيو الأقلّ إحساسًا بذلك من بينهم جميعًا (فسنواته الطويلة في برشلونة بعيدًا عن عائلته ومُجريات حياتها جعلته ينساها رويدًا رُويدًا) أقول هذا وأنا لا أعرف على وجه الدقّة كيف يفكّر أجوستين، فهو لا يعبّر عن مشاعره، ومن الصعب جدًّا معرفة ما يدور بخلده.

والحقّ أن ذلك يسبّب لي ألمًا، فهو أرقّ من جميع إخوته، وربّما تكون مشاعره أعمق ممّا يُظهر. والأمر ليس راجعًا إلى أنّه غير ذكيّ، فهو بالفعل يملك ما يكفي من الذكاء، على الأقلّ في المسائل التي يحتاج إليها، لكنّ حمي وحماتي يُفرطان في تدليله كأنّه طفل، ونتيجةُ ذلك التدليل المُستمرّ أن تحوّل إلى طفلٍ عاجزٍ، غير قادر رغم سنواته الخمسين على القيام بأيّ فعلٍ في حياته خارج دائرة الأساسيّات الأربعة. والحال أنّه لا يُعاني إلاّ من عاهة عقليّةٍ

وحيدةٍ ناتجةٍ عن خطإٍ طبّيٍ وقع أثناء الولادة. (فقد ولد بالبيت مثل كل أشقّائه، في تلك القرية التي توجد الآن قريبًا من هنا، على سفح هذا الجبل المنحدر في اتّجاه الخزّان، وكان ذلك بمساعدةٍ من بعض الجارات) إنّه خجول جدًّا. هذا هو التوصيف المُناسب بالضبط، لو أخذنا في الحسبان أوضاعه الحياتيّة، لا سيّما الآن بعد أن أصبح وحيدًا.

أعرف أنّ حماتي تعاني من أجله، لكن عندما اضطرّت إلى الاختيار بينه وبين زوجها اختارت الأب إلى أن حانت لحظة رحيله. يقول خوسيه أنطونيو إنّ تفكيري بهذه الطريقة فيه إجحاف، لكن تلك هي رؤيتي للأمر. ومع ذلك أعترف بأنّني أتفهّم موقف حماتي، في تنازعها بين زوج لم تعد قادرة على رعايته، بعدما فقد الذاكرة في سنواته الأخيرة وأصبح في حاجة إلى رعاية أكبر، وبين ابن حوّله الإفراط في رعايته وتدليله -لأنّه أصغر الأبناء- إلى عبء ثقيل عليها. إنّه قرار صعب على أمّ خصّصت حياتها لرعاية عائلتها وظلّت تقوم بواجبها مادامت تتمتع بالقوة اللازمة. ولذلك أنا لا أحكم عليها، ولكنّها في تقديري كانت مُجبرة على اتّخاذ القرار فاختارت زوجها وفضّلته على ابنها.

الآن وقد مات زوجها وبقيت وحيدة، تُرى هل تودّ أن تعود إلى الابن أم بالعكس تُفضّل البقاء في دار المسنّين، وهو الخيار الأكثر معقوليّة؟ فأجوستين لا يستطيع رعايتها، وهي في حالة

تُحتّم إيلاءها العناية اللازمة. لكن هذه أمور يجب أن يقرّرها الأبناء. وكما جرت العادة، سوف أحاول أن أظلّ بعيدة، حتى لا يفسّروا آرائي تفسيرًا سلبيًّا، كما حدث لي معهم في بعض الأحيان. ومهما يكن من أمر، يبقى الأهمّ عندنا جميعًا نحن الموجودين هنا بعد أن قطعنا كيلومترات كثيرة (وجدير بالذكر أنّي وأليكس قطعنا مسافة أطول، لأنّنا جئنا بالأمس من برشلونة) أن نقوم بتوديع حَمِي، ذلك الرجل الذي بدا لي باستمرارٍ جديرًا بالإعجاب لعناده وقوّته، ولكنّه أيضًا يتسبّب في إثارة مشاعر متناقضة بسبب صمته وصعوبة تعبيره عن مشاعره. حتّى إنّي لم أعرف البتّة ما إذا كان يقدّرني أم لا (والحال أنّه لطالما عاملني بلطف جليّ) فلعلّه تقبّل وجودي لأنّه وجد نفسه مُجبرًا على ذلك. وفي جميع الأحوال، أنا ابنته بالنسب، مادُمتُ زوجة ابنه خوسيه أنطونيو.

وذاك بالذات ما جعلني أتشكّك، سواء في موقفه منّي أو في موقف حماتي، أجل، لقد ظللتُ أشكّ في تقبّلهما لي تقبّلا حقيقيًّا، لا لأنّني كتالونيّة ولا حتّى لأنّني ابنة المدينة، بل السبب أنّي أبعدت عنهما ابنهما وغيّرت مصيره فلم يتبعهما، وكان المُنتظرُ أن يحلّ محلّهما عندما يحين تقاعدهما. فقد أعدّاه ليكون مثل حمي – الذي هو أبوه– ومثل جدّه، لكنّ الابن غيّر اتّجاهه في الحياة فجأة وقرر أن يمتهن مهنة أخرى. وكنت أنا السبب في ذلك من دون

أن أدري، إذ وقعتُ في حبّه.

أتذكّر أنّ المرّة الأولى التي ذهبت فيها إلى البحيرة مع خوسيه أنطونيو كانت قُبيل زواجنا بقليل، والحال أنّه استقرّ في برشلونة قبل ذلك بمدّة لا بأس بها. أي منذُ أنهى أداء الخدمة العسكريّة في مُعسكرٍ بجيرونا، بالقرب من مكان إقامتي وقتئذ (ولقد تعرّفت إليه في واحدة من حفلات الرقص الصيفيّة التي دأبوا إقامتها كلّ سبت في «الجينااردو»)، وكان خوسيه أنطونيو قد بحث عن عمل وبقي للإقامة في برشلونة، ولم يعد إلى «بالنثيا» سوى مرّتين لرؤية أبويه وأشقّائه، وفي المرّتين بقي معهم أيّامًا قليلةً فحسب. ثم رافقتُه بعد ذلك ليقدّمني إليهم وليخبرهم بأنّنا سوف نتزوّج. أتذكّر أيضًا أنّ ردّ فعل حَمي وحماتي كان تجسيدًا للانصدام، فهما لم ينتظرا مثل ذاك النبأ، لكنّهما رغم تفاجئهما هنّآنا على قرارنا وسافرا إلى برشلونة لحضور العرس، وهما اللذان لم يغادرا البحيرة إلّا إلى «بالنثيا» لإنجاز أمور تخصّ بعض الأوراق الرسميّة، أو مقابلة أحد الأطبّاء، أو إلى ليون لزيارة أحد الأقارب. وبغضّ النظر عن حقيقة الأمر لطالما اعتمل في أعماقي أنّهما كانا يودّان لو تزوّج خوسيه أنطونيو فتاةً من البحيرة، أو من «بالنثيا» على أبعد تقدير، كي يُواصل عمله في الحقل إلى أن يتركا له إدارة الأمور عندما يتقدّمان في السنّ ويتقاعدان.

لكنّ الأمر عندي سيّان، فقد مرّ وقتا كلّ هذا ولم يبقَ لي من

حماي سوى الذكرى، صورته في ذهني كرجل ملتصق بالأرض القاسية، رجلٍ جبليٍّ أعادوا زراعته في السهل الممتدّ بطول إقليم قشتالة. إنّه الفلاّح الصلد كصخرة من تلك الصخور المحيطة بهذا المكان الذي وُلد فيه. لم تُفاجئني رغبته في العودة إلى هنا بعد موته، فقد كانت جزءًا منه رغم أنه أمضى نصف حياته في البحيرة، في تلك الحقول التي تمتد بلا نهاية، وكلّما أجلت فيها النظر شعرتُ بالإعجاب. لكن من الإنصاف القول إنّ روحي تصاب برعدة أكبر حينما تتأمّل هذا الوادي الطالع في صمت من تحت مياه الخزّان، بعدما عرفتُ كلّ ما كان مغمورا تحته، فمنذ جئت مع خوسيه أنطونيو لرؤيته (ولقد مرّت على ذلك سنوات عديدة) لم أستطع أن أنزع عن ذهني تلك المشاهد رغم أنّي لم تكن تربطني بهذا الوادي أيّ ذكريات مثل تلك التي تربط زوجي به.

جرى ذلك بعد زواجي بقليل والوقت صيفٌ، كنّا قد جئنا لقضاء بضعة أيّام مع عائلته ونحن لم نُرزق بعد لا بدانييل ولا بأليكس، فطفقنا نتحرّك بحريّة تامّة، لا كما حدث لنا بعدئذ، حين أصبحنا نتحرّك حسب قدرتنا على تلبية احتياجاتهما. نعم، وصلنا إلى البحيرة صيفًا، في شهر سبتمبر، مازلتُ أذكر التفاصيل، فوقتئذ أغلقنا المطعم مدّةً طويلةً للتمتّع بالعطلة، ولم نكتف بالإغلاق بضعة أيّام في شهر أغسطس كما هو الحال الآن، (لأنّ الدخل ما عاد يسمح لنا بأكثر من هذا). وكان الجميع يتحدّثون

عن الأخبار التي نشرتها الصحافة، وجاء فيها أنّه تقرّر تفريغ الخزّان تفريغًا كاملا لتنظيفه، أو لصيانة السدّ -لا أحد يعلم بالضبط- وأنّه كلّما هبط منسوب المياه، تظهر بقايا القرى الغارقة إلى الوجود. ولقد أُرفقت الأخبار بصور تظهر بعض تلك البقايا. وفي البيوت كما في الحانات وفي شوارع البُحيرة لا تسمع حديثًا عن أيّ شيء آخر. وكان معظم جيراننا أصيلي بعض القرى التي أغرقتها مياه الخزّان، فما انفكّوا يتناقشون في ما إذا كان عليهم أن يأتوا لرؤية المشهد الحزين أم لا.

لم يشكُ زوجي لحظة واحدة. وقبل أن تنتهي إجازتنا، ركبنا السيّارة وصعدنا إلى هنا، هو وأنا فحسب، فلا حماتي ولا إخوة زوجي أرادوا مرافقتنا، على غير ما أعتدناه منهم (وطبعًا لم نسأل حمي لأنّنا كنّا نعرف إجابته مسبقًا). ولكم شدّني المشهد عندما دُرنا حول منحنى الطريق ووصلنا إلى أعلى بناء السدّ، عبر الطريق الجديد الذي يدور حول الخزّان، فبدا الوادي أمام عينيّ كأنّه نهاية العالم. لم يكن في الخزّان ماء، بل بحر من الطمي تتخلّله بقايا القرى، بالأخصّ بقايا إحداها، إذ كانت أبرزهم من هنا في الأعلى، وهي الواقعة بالضبط في منتصف الوادي الغارق. لم أعد أذكر اسمها، ربّما خوسيه أنطونيو يعرفه. ولقد زرناها فضلاً عن قرية عائلته التي لم يتبقّ منها شيءٌ، وأعتقد أنّها هُدمت هدمًا كاملاً قبل أن يصلها الماء. أمّا القرية الأخرى فبدت كاملةً أو نصف

غارقة، وكثير من مبانيها فقدت قرميد أسطحها. وكانت ترقد كجثثٍ معروضةٍ أمام الجمهور الذي اقترب من المكان بفضول كبير، وكأنّ تلك البقايا مشهد للفرجة. وممّا لفت نظري بشدّة على ما أذكر واحد من الأسطح جذبته المياه وهدمته فأصبح يغطّي جزءًا من أحد الشوارع المحيطة. وكذلك بقايا المدارس القديمة، ومبنى من الحجر ظلّ على حاله تمامًا، حتّى إنّ اللافتة التي تعلو بوّابته بدت واضحة: «مدرسة البنين والبنات 1929»، ولقد دأب الجيران القدامى أن يتركوا رسائل هناك (شاهدنا عددا من الجيران في ذلك المساء يتركون تذكارات لآخرين)، وتلك الرسائل ظلّت مكتوبة على الجدران وهي من قبيل: «لذكرى بيت فلان من جيرانه، جاءت عائلة فلان لترى..» (هناك يُذكر اسم القرية)، أو «يوم كذا، من فلان من بلباو الذي يحيّي أفراد العائلة، إلخ...» كان مشهدًا كأنّه من نهاية العالم، ولكن بحضور بشريّ، أو ما تبقّى من أثر ذلك الحضور المثير مثل بقايا القرية تمامًا. وإذ أفكّر في أنّ حمي سوف ينام هناك الليلة تنتابني القشعريرة.

لكنّه هو من أراد هذا. هو من أمر أفراد عائلته بأن يحرقوا جسده ويحملوا رماده إلى هنا وينثروه على سطح ماء الخزّان بالقرب من المكان الذي وُلد فيه. تلك كانت وصيّته منذ البداية، بل منذ اليوم الذي غادر فيه الوادي (وفقًا لما ذكرته حماتي)، والوصايا من الواجب تنفيذها. لهذا جئنا جميعا إلى هنا وسرنا في

اتّجاه الخزّان مثل عائلة إغريقيّة في موكب جنائزيّ غريب، يلوح على الطريق، وربّما يُثير من يشاهده. أوّلاً لأنّنا كنّا نسير في صمتٍ مُطبق. وثانيًا لأنّ كلّ واحدٍ منّا كان يسير إلى جوار الآخر من دون أن يتبادل وإيّاه أيّ نظرة. كنّا مُتكتّمين على أفكارنا وأحاسيسنا ونظراتُنا مركَّزة على الخزّان ذي المياه الهادئة والوحيدة.

يجب أن أعترف بأنّني لا أريد مقبرة لي مشابهة لهذه، لكنّي أتفهّم اختيار حمي هذا المكان كي يرقد فيه بعد سنوات طويلة من الانتظار.

ترى هل يمرّ أبنائي بمثل هذه التجربة؟

دانييل

لطالما كانت أمّي مثيرة للانتباه، فرغم معرفتها أنّ عائلة أبي تقليديّة جدًّا ومحافظة جدًّا على تقاليدها (لأنّهم في الأساس فلاّحون) جاءت هنا للمشاركة في الوداع الأخير لجدّي وهي مُتأنّقة كأنّها ذاهبة إلى حفل، حتّى إنّ أبي نبّهها إلى ذلك قبل أن تصعد السيّارة قائلاً: «لقد تأنّقت أكثر ممّا يجب»، لكنّها لم تقبل مُلاحظته. بل على العكس، انتقدت تحفّظه في اللباس، مُشيرة إلى أنّ أبي تبدو عليه تربيته الفلاحيّة بوضوح.

مسكين أبي! تُرى أيّ حزن يشعر به اليوم؟! من الصعب عليّ أن أتخيّل مشاعره وهو يُودّع الرجل الذي منحه الحياة، ويقوم بذلك في هذا المكان المحمّل بالرموز والمعاني والرعب، وفي هذا الزمن. ومن الصعب عليه أكثر التسليم بأنّ والده سوف يرقد هنا والى الأبد في مقبرة شبحيّة، مهما بدت جميلة تغطّيها السماء الزرقاء وما يزال الربيع يحيط بها. فلا أحد يستطيع القول إنّ هذه الصورة هي الأفضل للوداع.

على ما يبدو جدّتي هي التي قرّرت أن يجري الأمر بهذه

الطريقة. وبحسب ما قاله لي أبي، منذ اليوم الأوّل الذي رحل فيه جدّي عن قريته كان واضحًا أنّه لن يعود إليها إلاّ وهو ميّت، لكنّ الأمر لم يتمّ كما يُفترض: أن يرقد في قبر تحت الأرض، بل بتحوّله إلى رماد، كما أراد هو أن يكون. ولقد حكى لي أبي أيضًا أن هذا القرار أثَّر على جدّتي جِدًّا، بسبب تديّنها الشديد، واعتقادها في قيامة الأجساد وفقًا لرواية الإنجيل، وخشيتها أن يستحيل ذلك إذا أحرقوا الجثّة. أمّا أنا فأحسب الأمر سيكون سهلاً جدًّا على الرب...

مازلتُ أذكُر ردّة فعله عندما أخبره أبي بأنّي أريد دراسة الهندسة. كنّا في طريقنا إلى «فيريراس» فقال: «مثل أولئك الذي دمّروا فيريراس!»، وأظنّ أنّ جدّتي ظلّت صامتةً، لكنّها سألته بعد مضيّ بعض الوقت: «وسوف يعمل في بناء الخزانات؟» فأجابها: «من يعرف ربّما نعم، وربّما لا». وهذا الحوار الأخير حكاه لي أبي مُؤكّدًا أنّ جدّي لم يردّ وظلّ على صمته. والآن سوف يغدو صمته أبديًّا. الخلاصةُ إذن أنّه فوجئ جدًّا عندما علم أن ابن ابنه سوف يصبح في المُستقبل مهندسًا يتسبّب للآخرين في الآلام نفسها التي أصابوه بها في شبابه. طبعًا، لم تذكر لي جدّتي قطّ أيّ شيء يتعلّق بهذا الأمر، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّني رأيتها مرّات قليلة بعد ذلك اليوم، بالأخصّ في السنوات الأخيرة، فلا أنا ولا أسرتي ذهبنا كثيرًا إلى البحيرة.

لم يقل لي جدّي أيّ كلمة. فهو لا يتدخّل في مثل هذه الموضوعات، ربّما لاعتقاده أنها خارج نطاق تفكيره. إذ لم يكن ذا معرفةٍ مُعمّقةٍ إلاّ بشؤون الحقل، بوصفها العمل الوحيد الذي مارسه طوال حياته. وهذا لا ينفي أنّه كان رجلاً ذكيًّا. وأنه لو أُتيح له أن يدرس، لحصل ولا شكّ على شهادة عليا. والأمر نفسه في حالة أبي. من المؤسف أنّ أيًّا منهما لم يحصل على تلك الفرصة. نعم، لقد كان زمانهما مختلفًا عن اليوم. ولذا أنا أحمل على عاتقي مسئولية تحقيق أحلامهما، حتّى من موقع «المهندس»، تلك المهنة التي تذكّرهما بالعديد من الذكريات المؤلمة.

والحقّ أنّي بحكم معرفتي لجدّي وعائلتي وما حدث لهم، لا يُدهشني موقفهم من مهنتي، ولا يبدو لي غريبًا البتّة، بل إنّي أشاركهم الرأي إلى حدّ ما، وذلك راجع إلى معرفتي للطريقة التي كان يتعامل بها في وقتئذ كثير من المهندسين، لا سيّما في ظلّ الحماية التي وفّرها لهم فرانكو، فليس غريبًا إذن أن يخدموا النظام. لكن هذا لا يعني ألاّ نعترف بأهميّة بعض المشروعات التأسيسيّة، حتّى هذا الخزان الذي تسبّب لعائلتي في الكثير من الآلام. فماذا تراه يكون مصير إسبانيا بلا مياه للريّ، وبلا توليد للكهرباء، وبلا مياه نقيّة للاستخدامات المنزليّة؟

لطالما ناقشت أبي في ما يخصّ الحاجة إلى تلك المشروعات الكبرى التي نتأمّلها الآن، وقد انتشرت في عموم أوروبّا، بل في

العالم أجمع. أتفهّم أنّها ممّا يصعُب عليه قبوله، بالنظر إلى تجربته الخاصّة، ولكن يجب أن نضع العقل فوق المشاعر. وأبي ليس غبيًّا، ويعرف أنّ بلاده في حاجة إلى هذه المشروعات الهندسية التي تساهم في رفاه سكّانها. وإن كانت مثل هذه الأعمال تنتج عنها بعض الأضرار فإنّ الواجب يقتضي التقليل من تلك الأضرار بقدر المُستطاع، لا الوقوف ضدّها كما يفعل دعاة الحفاظ على الطبيعة وبعض الجماعات التي عانت من نتائجها السلبيّة (وهؤلاء أتفهّم موقفهم أكثر من الآخرين)، والغريب أنّهم جميعًا من بعد يطالبون بتوصيل الكهرباء والماء النقي إلى بيوتهم. وكلّ هذا لا يمكنني أن أقوله لأبي ولا لأعمامي، لأنّي لو فعلت سوف يغضبون منّي. وبالطبع لا أستطيع قوله لجدّتي، لأنّ المسكينة لن تفهمني.

لكنّي أتفهّم موقفها هي أيضًا. وكيف لا أتفهّم موقف شخص فسُدت حياته فجأة كحبل انقطع وما عاد يمكن إصلاحه أبدًا؟ هي ترى أن حياتها كلّها بقيت هنا في هذا المكان، في القرية التي شهدت مولدها، والجبال التي ترعرعت على سفوحها، ثمّ أتلفوها فجأة كأنما هي لعبة من الورق الكرتونيّ، تمامًا مثلما أتلفوا تاريخ أهلها البريء جدًّا، الملتصق بالأرض وبهذا المكان الذي لم يعد كما كان. لكن على أبنائهم أن يُغيّروا أفكارهم ويفكّروا بطريقة أخرى. سواء تعلّق الأمر بأبي الذي ترك المكان صغيرًا ولم

يكن وقتئذ يعي ما يحدث، أو بأعمامي الذين كانوا مُطالبين بتخطّي أزمة خروجهم من المكان مجبرين. ولكن بحسب ما أعرفه عنهم لا ما أراه منهم، ما تزال الآثار السلبيّة تمسك بتلابيب أبي، وأخشى أن يظلّ على تلك الحال حتّى آخر يوم من عمره. ولقد لاحظت أنّه يحاول إخفاء ذلك أمام الآخرين. ربّما لشعوره بالخجل من إعراضه عن التفكير العقلاني، والحال أنّ له ابنًا مهندسًا.

أمّا جدّتي فمن المعقول أن يستمرّ شعورها تجاه قريتها حتّى الآن، وأن تراها كالجنّة المفقودة التي لن تعود إليها أبدًا إلاّ في مخيّلتها. تماما كما سيفعل ذلك جدّي اليوم، وكما تخيّل الأمر آلاف المرّات عندما كان يعيش متأمّلاً هذه الأرض الممتدة أمام ناظريه وهو يعتلي الجرّار الزراعيّ، أو وهو يجاهد النوم ليلاً إلى جوار جدّتي سواء في بيته في البحيرة أو في دار المسنّين، ومن المؤكّد أنّها هي أيضًا تذكّرت قريتها ملايين المرّات، لكنّها ما انفكّت تسعى إلى تحقيق أمنيتها من خلال مرافقتها أبي أو أبنائها الآخرين في زياراتهم لهذا الوادي لتعاود تخيّل القرية التي ترقد تحت مياه الخزّان. ولا بدّ من القول إنّها وجدّي أيضًا واصلاَ تخيّل الحياة في قريتهما طوال خمسة وأربعين عامًا عاشاها في البحيرة. والدليل على ذلك أن الجدّة ظلّت تتحدّث عن القرية كأنّها ما تزال موجودةً هنا، بل كأنّها ما تزال تعيش فيها ولم تغادرها البتّة.

أعتقد أنّها سوف تستمرّ في فعل ذلك. ومادام الجدّ سيظلّ هنا سوف تظلّ معه، صحيح أنّها لن تكون معه جسديًا، لكنّها ستُرافقه روحيًا. وتبعًا لذلك ليس مهمًّا أن تعود إلى هنا عندما تموت، ولا ضروريًّا أن تُسلم بقاياها للمحرقة (وهو أمر ما لا ينفكّ يقلقها) لنأتي بها إلى هنا في قارورة جنائزيّة من السراميك كما جئنا بالجد تمامًا. نعم لن تحتاج إلى ذلك وقد بقيت هنا بالفعل. فمنذ بدأت علاقتها بجدّي وتزوّجا ظلاّ معًا ولم يفترقا قطّ، وسوف يظلاّن معًا مادام جدّي موجودًا هنا كما كان في حياته. لن تُفرّقهما سوى الآخرة، إن كان لهما أن يفترقا في يوم من الأيّام.

إنّ قصّتهما قصّة حبّ جميلة، قصّة لن يكتبها أحد لعدم وجود من يهتمّ بحكايات الناس البسطاء التي لا تنشرها الصحف، لكن ممّا لا شكّ فيه أنّها قصّة حبّ كبيرة لشخصين بسيطين، فلاّحَيْن غير مُتعلّمين تقريبًا، ليس لهما مطالب كثيرة، لكنّهما يملكان قلبين يعوّضانهما عن كلّ شيء. لقد تحابّا طوال حياتهما في صمت؛ ربّما حتّى من دون أن يُصرّح أيّ منهما للآخر بهذا الحبّ ولو مرّةً واحدةً. كذا هم أهل هذه الجبال، أُناس متحفظون جدًّا.

إن أهل مدينتي يختلفون عنهم جدًّا، أو على الأقلّ الناس الذين أعرفهم وأتعامل وإيّاهم يوميًّا، باستثناء أبي، فرغم تغييره مكانه ما يزال يشعر بأنّه من هنا، من البحيرة، إلى جانب إخوته، لصيق بهم، لا سيّما شقيقه أجوستين الذي لم يخرج من هنا قطّ، حتّى إنّه

أصبح مرآة المكان الحيّة الوحيدة، ما يعني ضمنيًّا أنّه مرآة جيرانه أيضًا. ومع أنّ أبي أقلّ انغلاقًا، وأقلّ صمتًا وأكثر فصاحةً في التعبير، ما يزال في أعماقه يشعر بالانتماء إلى هذه الجبال الصلدة، الصلدة والحزينة مثله. أجل، فهو تبدو على ملامحه مسحة حزينة، لكأنّه رجل خارج الزمن، أو شخص رأسه في مكان وجسده في مكان آخر. لقد رأيت أصدقاء له مثله، أصدقاء جاءوا هم أيضًا من أماكن أخرى، جاءوا إلى برشلونة من أماكن مُختلفة في إسبانيا، وحتّى بعدما عاشوا نصف حياتهم هنا مازالوا ينظرون إلى المدينة بنظرة الغرباء عنها، كأنّهم فاقدين الإحساس بها فقدانًا كاملاً رغم أنّ كلّ ما يحيط بهم (الأسرة والأبناء والعمل) يؤكّد لهم يوميًّا عكس ما يرونه. وفي حالة أبي هناك أمر يُعمّق إحساسه بأنّه من خارج برشلونة، فهو مثل أبويه وأشقّائه، منذ خرج من هنا أصبح يشعر باستمرار بأنّه غريب في جميع الأمكنة التي عاش فيها.

يا له من إحساس مؤلم! فأن تشعر بالغربة في كلّ مكان، وأن ينتابك هذا الإحساس يوميًّا هو بلا شكّ أمر مؤلم، مهما حاولت الاعتياد عليه، ومهما حاولت نسيانه في تعاملاتك اليوميّة. هذا إذا كان النسيان مُمكنًا. جدّي مثلاً، حسب ما سمعته عنه، لم يعد للحديث عن الوادي البتّة، ولا للحديث عن قريته وعن الآخرين الذين عاشوا هُنا، لكنّ ذلك ليس دليلاً على أنّه نسي كلّ ما مضى، بل لو عكسنا لأصبنا، هو لا يتحدّث عنهم لأن مجرّد تذكّرهم

يسبّب له ألمًا. وبالنظر إلى ذلك يمكن أن نفهم لماذا كان قليل الكلام. ترى ماذا كان يمكنه أن يقول وجُلّ حديثه سيتسبّب له في الإحساس بالحزن؟ وعمّ يمكنه أن يتكلّم؟ عن عائلته وعن عمله؟ كل ذلك لم يكن يهمّه مهما حاولنا أن نحدّثه عنه، لذا لم يبدُ لي غريبًا أن يزداد التزامه الصمت مع مرور الوقت، حتّى إنّ صمته ذاك كان يضع أبناءه في مواقف عصيبةٍ من حين إلى آخر. لكنّي أفهمه جيّدا، وأفهم رغبته في العودة إلى الخزّان، إلى الجبال التي علّمته معنى الحياة، ليُناجي ذكرياته في صمت كما فعل طوال حياته في البحيرة. وإنّي أرى قراره هذا محزنًا جدًّا.

ماريا روساريو

لطالما حدّثني دانييل عن عائلته من ناحية الأب بعاطفةٍ مشبوبةٍ. لا سيّما حديثه عن جدّه، ومن المؤسف أنّي لم أعرفه. لقد وعدني دانييل بالحضور هذا الصيف ليقدّمني إليه، لكنّ هذا لم يعد ممكنًا الآن.

على أيّ حال، يمكنني أن أكوّن فكرةً ما عن هذا الرجل، وعن حياته في القرية من خلال ما حكاه لي دانييل وأليكس، وبالأخصّ ما يتذكّره عنه والدهما (فأمّهما قليلة الحديث عنه، وهذا طبيعيّ لأنّها ليست ابنته) أجل، من خلال الأحاديث أستطيع تكوين فكرة عن هذا الجدّ وملامح شخصيّته الفريدة، إنّه رجل ينتمي إلى أمثاله من رجال هذه الجبال، على ما يبدو، ومختلف عن غيره من كلّ رجال العالم، على ما أعتقد.

جدّي ألفريدو، على سبيل المثال، لا يُعّدّ مُختلفًا، كلّ ما في الأمر أنه يعيش في تورينو منذ سنوات، ويحتفظ بالملمح الجافّ لفلاّحي جبال أوستا، فهناك عاش حتّى هاجر إلى الأرجنتين. حدث ذلك قبل سنوات عديدةٍ، وكلّ ما فعله في الأرجنتين أنّه حاول تكوين

ثروة قبل عودته إلى إيطاليا، ولقد عاش مُهاجرًا سنوات أكثر من التي عاشها في تورينو مكان إقامته بعد عودته، لكنّه حافظ على الملامح القاسية لرجال الجبال، تلك الروح الجافة والرقيقة في آن واحد، ووفقًا لأقوال دانييل فإنّ جدّه كان كذلك.

لم يحدّثني عن جدّته كثيرًا. إنه يحبّها ولا شكّ، كما يحبُ جدّه، ولكن يبدو لي ارتباطه بها أقلّ وثاقةً من ارتباطه بجدّه، ففي السنوات الأخيرة لم تعد له بها علاقة على الإطلاق. وكانت عائلته قد قلّلت منذ زمنٍ زياراتها إلى البحيرة، (هذا هو الاسم الذين يسمّون به قريتهم) تلك القرية التي خُلقت اصطناعيًّا، إذ حلّت محلّ قرية أخرى وُجِدت قبلها في المكان نفسه، وجرّاء ذلك لم تتّسم علاقته بجدَّيه بالارتباط الشديد. الأمر نفسه حدث أيضًا بيني وبين جدّي «ألفريدو» في تورينو، والحال أنّه كان يُقيم في الشارع نفسه الذي يقيم فيه أبواي، لا كجدّي «بيترو» و«سليفانا» المُقيمان على بعد كيلومترات قليلة. لكن ابتعاد دانييل لم يُنقص من المحبّة التي يُكنّها لجدّيه. فهو ما يزال يشعر بها، وعندما علم أن جدّه يُحتضر أراد أن يأتي ليبقى معه، ورافقتُه في الرحلة رغم عدم معرفتي بجَدّه ولا بأيّ من أفراد عائلة أبيه التي تعيش متفرّقة في أماكن متعدّدة من إسبانيا على ما بدا لي (فالعمّ الأصغر فقط عاش في بيت البحيرة). سافرتُ معه إذن حتّى تلك المُحافظة، لكنّنا وصلنا متأخّرين فلم نَرَ جدّه على قيد الحياة. لقد مات قبلئذ بساعة

في مستشفى «بالنثيا» الذي نقلوه إليه جرّاء وقوعه في غيبوبة سبقت موته بثلاثة أيام. وكان والد دانييل قد سافر قبلنا، فوجدناه عند وصولنا أمام باب المستشفى وأخبرنا بما حدث وبرفقته شقيقاته وزوج واحدة منهن. أمّا الشقيق الأصغر فبقي في البيت، وعلمتُ لاحقًا أنّه لم يذهب إلى المستشفى لرؤية والده قبل وفاته إلاّ مرّات قليلة، فهو في حاجة إلى من يأخذه إلى هناك ويعيده إلى البيت، إذ لم يكن يقود أيّ سيارة.

يقول عنه دانييل إنّه متخلّف عقليًا. لكنّي لا أعتقد ذلك، وأمّه أيضًا تُشاطرني الرأي، وتقول إنّه -على عكس ما يُظنّ- أكثر أبنائها ذكاءً، وهو أمر لا أعرف مدى صحّته بالضبط، فأنا لم أتعامل وإيّاه إلاّ مرّات قليلة. إي نعم هو لا يعمل ولا يفعل أيّ شيء، لكنّي أراه شخصًا بسيطًا لا أكثر، وليس كما تُصوّره عائلته، حتّى والد دانييل، بوصفه الأخ الأكبر، كان يعامله كأنّه ابن وليس أخًا شقيقًا. ومهما يكن من أمرٍ، أنا لا أستطيع الحكم عليه لقلّة التواصل بيننا، واقتصاره على ما تقتضيه أوضاع العائلة. منذ جئت من بالنثيا، كلّ ما حدث سلسلة من المشاهد الجنائزيّة، بدءًا من إلقاء النظرة الأخيرة على الجدّ الميت حتّى الجنازة التي تنتهي الآن في هذا المكان. مكان كان يمكن أن يبدو لي رائعًا لولا سبب مجيئنا إليه: نثرُ رماد جدّ دانييل على سطح ماء الخزّان. فتحت مياه هذا الخزّان ترقد القرية التي وُلد فيها وكان يأمل أن يرقد تحت

تُرابها مثله مثل الآخرين ممّن يحبّون أن يكون مستقرّهم الأخير البحر أو الجبال. فجدّتي أنخيلا، على سبيل المثال، أرادت أن ينثروا رمادها فوق الجليد، ولقد نفّذ أبناؤها وصيّتها بنثر رمادها في إحدى الحدائق العامّة في تورينو، بالقرب من نهر بو، في يوم شتويّ تميّز بتساقط الكثير من الثلج.

لكنّ يومنا هذا طقسه رائع، إنّه يوم لم يختره أحد -أو على الأقلّ هذا ما يبدو لي- للعودة إلى الطبيعة، منبع الطاقة. فالربيع قد حلّ منذ مدّة لا بأس بها، وهو ما يتناقض وحزننا الظاهر. فجميعنا، نحن الموجودين هنا (حتّى أنا المعدومة المعرفة بجدّ دانييل) نشعر به إلى جوارنا يتأمّل ماء هذا الخزان الذي تنعكس على سطح مياهه صورة الجبال والسحب المنتشرة في السماء، وأكثرها بيضاء كندف القطن، في ما يشبه لوحةً لرفائيل، لوحة تُخفي ما تسبّب فيه الخزّان من دمار غارق تحت سطحه. وحسب رأيي، من الأفضل أن يكون الأمر على هذا النحو، فقد سمعتُ مرّة من أحد أساتذة علم الجمال في جامعتي أنّ ما هو قبيح وما هو جميل يحتاج كلّ منهما إلى وجود الآخر ليبرُز، لكن القبيح يجب أن يبقى خفيًّا.

طبعًا، ليس على الآخرين أن يفكّروا مثلي، لا أعرف فيما يفكّرون الآن، لكن من المؤكّد أنّ لهم وجهات نظر أخرى، فجدّة دانييل، على سبيل المثال، أحسبها لا ترى الربيع مثلي، ولا جمال الوادي، ولا نصاعة السحب، بل تشعر بالوجه الخادع والمميت

لماء الخزّان الذي تطلّ عليه مرّة أخرى، لكنّها تفعل ذلك اليوم لتودّع زوجها وداعًا أخيرًا. وإلى جانبها ما انفكّت ابنتها الكبرى «تريسا»، تلك المرأة التي تبدو صورةً لها، مع إنقاص خمسة وعشرين عامًا أو ثلاثين، تتأمّل الماء بتركيز، كأنّها تريد سبر أغواره. وزوجها أيضًا يفعل الأمر نفسه، وهو رجل ذو ملامح طيّبة لا تتغيّر لحظةً واحدةً. أمّا ابنتاها، وكلاهما أكبر منّي قليلا فمختلفتان، إحداهما متزوّجة والأخرى تحلم بأن تُصبح ممثّلة، بحسب قول دانييل (والحقّ أنها جميلة جدا)، وثمّة بيني وبينها شبه، على الأقلّ في طريقة اللباس والحركة. وكيف يمكن للاثنتين أن تفكّرا بالطريقة نفسها؟ لبثنا، والدا دانييل وأنا وبقيّة العائلة، حتّى العمّ أجوستين الذي تبعنا سيرًا على الأقدام (ولا أعلم هل هو معتاد على هذا أم لا؟) نتقدّم في حالة من الصمت التام، وبعضنا ينظرون إلى ماء الخزّان بعدم تركيز، وفينا حتّى من يكاد لا يواصل النظر. أبناء العمّ القادمين من «سانتانديرِ»، مثلاً، بدوا أكثر وعيا بما يدور من حولهم (مثل تلك الأعشاب التي ربّما تخفي بعض الأسرار أو بعض الجذوع النامية بالقرب من الشاطئ) وإلى جانبهم ظلّ العمّ أجوستين يتابع الطيور وهي تُحلّق فوق سطح الماء بلا توقّف. والظاهر أنّها شغلته أكثر ممّا يقوله إخوته عن أبيه في الوقت نفسه.

أنا حدث لي الأمر نفسه، فبعد أن استمعت إلى حكايات دانييل

عن جدّه، لا سيّما حكاية مغادرته القرية (عندما وصل إلى «بالنثيا» ووجد نفسه أمام كوخ في وسط الفراغ بدلاً من البيت الذي وعدوه به قبل الذهاب إلى هناك)، بدأت أشعر بالتعب، وأفضّل أن أفكر في أشياء أخرى، إن لم تكن مفرحة، وذلك أمر غير سهلٍ مادُمنا في جنازة، يكفي أن تكون أقلّ إيلامًا ومأساويّة. طبعًا وفاة أيّ شخص أمر محزن جدًّا لا محالة، وفي حالتنا هذه هو أشدّ إحزانًا، لأنّ الميّت لا يملك أن يُدفن في المكان الذي أراده، لكن يوجد فارق كبير بين تخفيف الحزن وبين الفرح في مثل هذا الوضع. يُضاف إلى ما سلفَ أنّ جدّة دانييل مُسنّة جدًّا، وعاشت الحياة التي اختارتها، فإذا استثنينا حالة تهجيرها من بلدتها عندما كانت بعدُ في شبابها، ومأساتها الأخرى التي كُتب عليها أن تعيشها (وفاة ابنها الأكبر، وقد علمت بذلك اليوم فقط) يُمكن القول إنّ الحياة منحتها الكثير من عناوين الفرح، بدءًا من أولادها وصولاً إلى الأملاك التي جمعتها لهم، وفي ما يخصّ ذلك يجب الاعتراف بأنّها بذلت الكثير من الجهد، ويجب أيضًا النظر إليها على هذا الأساس. وعلى دانييل إدراك أمر مُهمّ وهو أنّ أباه وجدّه وعائلته محظوظون كثيرًا (والدليل على ذلك اجتماع العائلة كلّها هنا اليوم) وعلى ضوء هذا يمكن للجدّ أن يستريح في سلام. أمّا أبناؤه وزوجته فسوف يزول عنهم ألم الفراق، وسوف تبقى ذكراه في أحفاده، ثمّ تُمحى من أنفسهم مع مرور الزمن. لقد

حدث هذا لي مع ذكرى جدّتي أنخيلا ولم يمض على غيابها سوى عشر سنوات.

هذا هو قانون الحياة، بحسب ما يقولون، أناس يذهبون وآخرون يأتون، أناس يختفون وآخرون يحتلّون أمكنتهم، وسوف يظلّ العالم هكذا. لذا يجب الاستمتاع بالربيع، وبالسحب والطيور، والاستمتاع حتّى بجمال ماء الخزّان، مثله مثل أيّ شيء. نعم هو يذكّرنا بأمرٍ مأساويّ، لكنّه في الوقت نفسه يعدّ من المشاهد الطبيعيّة الرائعة. يجب استغلال كلّ دقيقة من زمننا الذي يمضي بسرعة كبيرة، بدلاً من إضاعة الفرح بالحزن على من فقدناهم مؤخّرًا، أو الذين فقدناهم منذ زمن مضى، مثل ما حدث لجدّة دانييل جرّاء فقدها عمّه. فالمسكينة لم تستمتع بما كان لديها لأنّها لم تستطع نسيان ما فقدته البتّة.

أنا أفهمها جيّدًا، ففقدان ابن، ثمّ فقدان قرية، وبدءُ حياة جديدة في مكان آخر من دون رغبة منها أمر لم تتخيّل حدوثه حتّى كمجرّد احتمال، إذ على عكس جدّي ألفريدو، أهل دانييل عندما كانوا يعيشون هنا لم يفكّروا في الهجرة قطّ، بل هاجروا تنفيذًا لإملاءات القدر، وهو ما جعلها حدثًا مأساويًّا. لكن على الإنسان أن يواجه الأقدار المعاكسة مهما اشتدّت الآلام -هذا على الأقلّ ما أعتقد- وإلا فإنّه قد يتحوّل إلى تمثال من الثلج مثل امرأة لوط التي تذكّرني كثيرًا بجدّة دانييل.

في جميع الأحوال، لستُ مؤهّلة لإبداء رأيي، وأنا غريبة عن العائلة، رغم كلّ ما أصبحت أتقاسمه مع أفرادها (حتى اللغة تبدو لي غريبة، لأنّي معتادة على اللهجة القشتاليّة في برشلونة)، أجل، أنا مجرّد عابرة في حياة تلك العائلة التي تعرّفت إليها قبل ما يزيد قليلاً عن يومين. يُضاف إلى ذلك أنّ التعارف جرى في ظروف لا تسهّل الاندماج البتّة، ولا إقامة علاقات حميمة مع بعض الأفراد الذين ينظرون إليّ كأنّي غير موجودة. ليس لأنّهم يتعمّدون معاملتي ببرود، فعلى العكس، جميعهم ظرفاء معي، ويجب ألاّ أشكو من سلوكهم. كلّ ما في الأمر أنّهم لا يعدّونني فردًا من عائلتهم وهذا يمكن ملاحظته بوضوح. لكنّي أراه أمرًا عاديًّا، فهم يعيشون لحظات تعيسة جدًّا وأنا مجرّد خطيبة لأحد أفراد العائلة (وسواء هو حفيد، أو ابن أخ، أو ابن عم، ما الفارق؟) وما زاد من غُربتي بينهم أنّ أيًّا منهم لم يتعوّد على صفتي تلك. فالعلاقة بين أبناء العمّ تكاد تكون منعدمة لأنّهم لم يتعارفوا بما فيه الكفاية، كما هو حال دانييل وأليكس مع القادمين من «سانتاندير». فلا هما ولا أولئك، زاروا البحيرة كثيرًا خلال السنوات الأخيرة، وحتّى لو افترضنا أنّهم فعلوا ذلك فالمؤكّد أنّهم لم يلتقوا، ولهذا ليس غريبًا أن يعدّوني غريبةً، وبعضهم لم يعرف بوجودي حتّى أوّل أمس.

ولو محّصنا ما تقدّم لوجدناه في صالحي إلى حدّ ما، فعدّي مجرّد

عابرة في هذه العائلة الغريبة، أو أجنبيّة، يجعلني أفهم بعض الأشياء، ويسمح لي بالنظر إليهم على أساس أنّهم غرباء عنّي (ما يهمّني أنّني لن أشعر تجاه حزنهم بأيّ تعاطف) وهكذا يُمكنني الاستمتاع بهذا اليوم الرائع وهذا المشهد العذب الذي لا يشعرون به ولا يقدّرونه حقّ قدره، لأنّ ذكرياتهم المُتعلّقة به تمنعهم من ذلك، ليس اليوم فحسب، بل وفي أيّ يوم آخر. أمّا أنا فعلى العكس، مادمتُ غريبة عن المكان، لا يمنعني أي شيء من أن ألقي نظرة إعجاب مَن لا يُخفي تقديره لمثل هذا المشهد، لكنّي في الوقت نفسه حريصة على ألا يشعروا بأنّني لا أبالي بهم.

أليكس

«سوف ينام اليوم مع الأسماك.»

سمعت هذه الجملة في واحدٍ من أفلام المافيا، لم أعد أذكر اسمه الآن، لكنّ الكلمات عَلِقت بذهني وظلّت محفورة فيه، يا له من أمر مُقلق أن جرى تنفيذ الوصيّة ومات الشخص المقصود غرقًا في الماء البارد لميناء نيويورك بفعل حجر مربوط إلى العنق.

تذكّرت هذا الفيلم الآن بسبب الجدّ. سوف ينام الليلة مع الأسماك رغم أنّه لم يكن يومًا من رجال العصابات، ولا حتّى رجلاً خطِرًا، بل بالعكس، لطالما انتمى إلى من يحترمون القانون، والحال أنّ ما مرّ به كان يمكن أن يجعله يتمرّد ضدّ ممثّلي القانون. أنا، لو وُضعتُ مكانه، لما تردّدتُ لحظة في اختيار التمرّد، وحتّى لو لم أعمد إليه مباشرة عند وقوع التهجير تحت غطاء قانونيّ، لأنّ ذلك كان مستحيلاً بالنظر إلى الوضعيّة الدقيقة للبلاد وقتئذ، فما من شكّ في أنّني بعدما تغيّر الوضع وبدأ الناس يُعلنون موقفهم بالتظاهر كُنت على الأقلّ سأعبّر عن رفضي بكلّ وضوح. ربّما لم يستطع الجدّ الجهر بموقفه المُندّد بالمسئولين المباشرين عن ممارسة

القهر، وربّما لم يتسنّ لأحد أن يعرف أماكنهم في تلك الفترة، لكن كان في الإمكان التمرّد ضدّ من تولّوا بعدهم، هؤلاء الذين ما يزالون يمارسون إدارة الخزّان الكبير يوميًّا، والآخرون الذين يتصرّفون في أرباحه من ليون أو مدريد. أرباح لم يشاهدها المُتضرّرون مثل جدّي قطّ، ولم يحصلوا منها على ما قد يمنحهم الفرصة للبدء مُجدّدًا.

أوّل حديث سمعته عن الخزّان كان من أبي، ومنذ زمن بعيد. لا أتذكّر مقدار عمري وقتئذ، لكنّي أتذكّر أنّ أبي أخذ يتحدّث إلى صديق له في شرفة إحدى حانات برشلونة، على الشاطئ الذي كان يأخذنا إليه أنا وشقيقي دانييل ونحن صغار، كلّ يوم أحد من أوّل يونيو حتّى أكتوبر (كم من الوقت مضى حقًّا من دون أن أذهب إلى هناك!)، وفي لحظة معيّنة من حديثه خفض صوته وهو يقول: «لقد كان قهرًا، لم يدفعوا لنا ولو نصف ما يساويه حقلنا». بعد العودة إلى البيت، سألت أبي عن الحقل موضوع الحديث، فحكى لي للمرّة الأولى تاريخ عائلته، وكنت أجهله جهلاً تامًّا. ثمّ أضافت أمّي إلى ما سمعته من أبي بعض المعلومات الأخرى، مثل صفات المكان الذي كانت قرية جدّي قائمة فيه (وها إنّي أراه الآن مرّةً ثانيةً) وحكايات الجيران عندما أغرقت مياه الخزّان ممتلكاتهم وحقولهم، تلك المياه التي طلب جدّي منّا أن نلقي رماده فيها بعد موته. (يا لهاجس الموت المسيطر على هؤلاء الناس! ولكن لعلّ

ذلك ناجم عن اقتلاعهم من أرضهم). ولمّا كان شقيقي يعرف الحكاية لأنّه أكبر منّي سنًّا، ساعدني على إنهاء جهلي بالأمر إذ كشف لي كل ما يتعلّق بالبحيرة، (القرية التي جاء منها أبي) وهكذا فهمتُ أنّ الأهالي ليسوا فلاّحين أمضوا قرونًا من الحياة في المكان نفسه مثلما ظننت بل أناس مُهجّرون طُردوا من أرضهم جرّاء بناء خزّان مثل هذا.

ومنذئذ أخذ نفوري من تلك المشروعات يتزايد، ما جعل أبي يشعر بالسعادة، إذ رأى فيه دعمًا له ولأمثاله ممّن عانوا القهر، أمّا أخي دانييل فكان يراه كالعدوّ. وعنده كلّ الحقّ في جزء من نظرته، فلو تأمّلنا الحال اليوم، لألفينا المطالبة بجبر ذاكرة الناس، ولا أقول جبر الطبيعة، عند كثيرٍ من الأشخاص نوعا من السذاجة، وأخي ينتمي إلى هؤلاء. ومهما يكن، ما يهمّني أن أدافع عمّا أنا مُقتنع به، وهذه إحدى قناعاتي، ولعلّها أهمّها، نعم، ليس للازدهار الاقتصادي أن يبرّر كلّ الأفعال.

لكن، لماذا أفكّر في هذا الآن؟ لماذا وصلتُ إلى هذه النقطة وقد انطلقتُ من ذكرى فيلم سينمائي عن رجال العصابات، هؤلاء الذين يقولون بصوت خافت في إحدى قاعات العرض السينمائي بنيويورك: «اليوم سوف ينام مع الأسماك». لقد جِئنا إلى هنا لنودّع جدّي، وحملت تريسا رماده معها في القارورة الجنائزية أليس كذلك؟ الحقّ أنّ الخيال لا يمكن التحكّم فيه، وكذلك الذكرى،

فمن انعكاس الصور بالأبيض والأسود على سطح ماء ميناء نيويورك أخذتني الذاكرة إلى برشلونة، عند الشاطئ الملوّن الذي تعوّدت أن أسبح فيه وأنا طفل، إذ كنت أزوره خلال الصيف مع عائلتي المنتمية إلى الطبقة الوسطى. ثم أعادتني الذاكرة مرّة أخرى إلى هنا، إلى هذا الوادي الغارق، القابع في سكينة الخراب. وكلّ هذا حدث خلال ثوان معدودة، بفعل النظر إلى الماء بجوار أفراد عائلتي الذين توقّفوا قليلاً قبل الهبوط إلى الخزّان، ربّما لتأخير الوصول إليه. فجميعنا نعي اقتراب اللحظة النهائيّة، لحظة الوداع الأخير لجدّي، مثلما نعي أنّ تلك اللحظة سوف تُؤجّج حزننا، بل لقد بدأ اقترابها يُثير عواطفنا بالفعل، وما عينا أبي الدامعتان إلاّ دليل، عمّا يعانيه الآن. مسكين أبي! تُرى كم عانى في حياته منذ خرج من هنا وكتم ما في نفسه ولم يُصرّح به حتّى في البيت. أذكر أنّه بكى أكثر من مرّة، وأخشى أن نكون قد قصّرنا ولم نتفهّم حاله كما يلزم، أفكّر في هذا الآن وأنا أراه ينظر إلى المكان الذي وُلد فيه، ولكنّي فكّرت في الأمر نفسه أيضًا عندما كنت أراه يسير في شوارع برشلونة أو يتنزّه في حقول البحيرة حين نزورها. كان يبدو لي أنّه في البحيرة يعيش خارج نطاق الواقع.

وبحسب قول أمّي، جدّي أيضًا عاش الحالة نفسها. وهو في ذلك عكس جدّتي، فمع حزنه المرسوم على قسماته باستمرار جرّاء ما كان يجري حوله من أحداث، وما وقع له من مآسٍ، يبدو كأنّه

يعيش في فقاعة، أو في غيبوبةٍ خاصّةٍ يكاد لا يخرج منها البتّة، وإن حصل ذلك، فتحت ضغوط الحاجة. لقد عاش غريبًا ومات غريبًا، وها إنّه يعود غريبًا إلى المكان الذي أراد -رغم كثرتنا في رفقته- كما كان وهو على قيد الحياة. إنّه الوحيد الذي لن يُعبّر عن أيّ قلق عندما يسحبه ماء الخزّان حتّى الأعماق كما يفعل دومًا بكلّ من يسقط فيه. سوف يختفي في الماء كأيّ غريق، فيما سيبقى من يرافقونه ناظرين إلى الماء رغم علمهم أنّه لن يعود أبدًا.

سوف تأكله الأسماك... لكن، لماذا يسيطر عليّ هذا المشهد بشدّة؟ لماذا يقلقني أن أتخيّل رماد جدّي إذ تأكله إحدى أسماك السلمون، أو سمكة نهريّة، أو حتّى تلتهمه حيّة أو أيّ نوع آخر من أنواع المخلوقات البحريّة التي تعيش في أعماق الخزّان، ولا يزعجني أن يتحلّل في الأرض كمعظم الناس عندما يموتون؟ ماذا يوجد في الماء لأخافه جدًّا والحال أنّي قضّيت معظم حياتي بالقرب منه؟ فمنذ وُلدت، عشت بالقرب من البحر وقضّيت فيه أفضل لحظات حياتي بين السباحة واصطياد الأسماك مع أصدقائي.

ربما هذا هو ما يقلقني: إنّ ما كان يمثّل لي الحياة باستمرار أصبح يُمثّل العكس للآخرين وهم يرونه الآن بكلّ قسوته. لقد عرفتُ قبل اليوم ما يعنيه الخزّان ولا شكّ، إنّه الألم الذي يصيب أشخاصًا كثيرين، مثل جدّي وأبي (وأيضا أعمامي، بعد ما تأكّدت

منه اليوم)، أشخاصًا عانوا جرّاء بناء أحد الخزّانات، لكن ما شعرت به هذا الصباح هو الرائحة العطنة الناجمة عن الماء الراكد. وعلى ما أعتقد سوف يذهب جدّي إلى هناك مع الأشجار الغارقة، إلى جوار أطلال القرية المليئة بالطمي. يجب أن يعيش مع الأشباح كأيّ سمكة أخرى. مؤكّد أنّ بعضها كانت مثله ومؤكّد أنّه سوف يتحوّل إلى شبيه بها. في يوم من الأيّام، عندما يعود أيّ منّا إلى هذا المكان وينظر إلى الخزّان مثل ما نفعل الآن، ربّما يُشاهد سمكة تمرّ بالقرب من الشاطئ وتتوقّف لتتأمّله، ومن خلال عينيها يتعرّف الجدّ، إذ يُميّز نظرته الفلاحيّة المجهدة والصلدة، وقد تغدو أكثر حزنا ممّا كانت عليه ...

أنا لا أحبّ أيّ شيء من كلّ هذا البتّة، فكلّما أمعنت في تأمّل هذا المكان ازداد في نظري شبحيّة، رغم أنّي للوهلة الأولى رأيتُه جميلًا. إنّ سطح الخزّان الذي تنعكس عليه السماء، والخضرة النقيّة لحواشيه، والرماديّ المنعكس من الجبال المرتفعة المحيطة بالوادي كلّه (ومنها هذا الجبل الشاهق المواجه لنا)، لا تصرف عن ذهني أنّني أمام مقبرة مصنوعة من الماء في مكانٍ ما على الأرض. لذا أتفهّم موقف جدّتي ومعارضتها -بحسب ما سمعت- لوصيّة جدّي التي عبّر من خلالها عن رغبته في البقاء هنا إلى الأبد، وهو أمر صدمها صدمة كبيرة، وأتفهّم أيضًا موقف العمّ أجوستين هذا الصباح إذ قال لي إنّه يودّ لو يبقى في البحيرة.

(لعلّه حدس سلفًا أنّ الخزّان يثيره ويقلقه مثلما يفعل بي تمامًا.) وذلك من دون أن يعرف جملة رجل العصابات الأمريكيّ، ولا يشاهد مثلي جثّة الرجل الذي أخرجوه من البحر في أحد شواطئ تراجونا، بالقرب من دلتا الايبرو، وقد نهشته النسور.

فيرخينيا الابنة

عندما كنت في العاشرة من عمري، أخذني أبي يومًا إلى ليون لنزور شقيقه خوان، الوحيد الذي بقي في المحافظة. جرى ذلك بعد مرور عام على وصولنا إلى البحيرة وكانت تلك المرّة هي الأولى التي يلتقيان فيها منذ أن تركا «فيريراس.»

ما أذكره عن العمّ خوان نقمته الكبيرة على الأوضاع. كان مُحبطًا وبه غضب مكتوم جعله في الأيّام السابقة لتهجيره يأتي تصرّفات غريبة، منها إلقاؤه كلّ الأشياء التي لا يستطيع أخذها في النهر: المحراث، النير، وجميع أدوات الزراعة الكبيرة. حتّى العربة «الكارو» التي تنقل الحشائش سحبها وحده في إحدى الليالي فيما كان الآخرون نيامًا، كي لا يستولي عليها أحد، وغادر «فيريراس» من دون أن يُودّع الجيران كأنّما هم مسؤولون عمّا حدث. أمّا نحن فقد ودّعَنا لأنّنا عائلته. العمّ خوان المسكين! وأنا أفكّر فيه الآن، أتساءل عن شدّة المعاناة التي شعر بها عندما أُجبر على مغادرة البلدة، وعاش وحيدًا بسبب عزوبته.

في ذلك اليوم إذن استقبلَنا عمّي خوان في بيته. إنّه المسكن

المُخصّص للحارس ببناية وسط المدينة. ولقد تسنّى له أن يحصل على تلك الوظيفة (وهو الفلاّح القحّ!)، بمساعدةٍ من أحد أبناء عمومته. وابن عمّه هذا أصيل «فيجاميان» لكنّه بدأ العيش في ليون قبله بسنوات. وجدنا بيت عمّي في حالة من الفوضى كما هو مُنتظر من رجل يعيش وحيدًا، لكن أكثر ما لفت انتباهي قلّة أثاثه، إذ لم يعدُ طاولةً مع ثلاثة كراسي في غرفة المعيشة، وأريكةً، وتلفازًا صغيرًا وسريريْن في غرفتَيْ نومٍ نمنا أنا وأبي في إحداهما ليلتئذ. وعندما سأل والدي عمّي عن تلك الحال أجابه قائلاً: «ولِمَ أحتاج إلى الأثاث؟»

في الليل، قبل أن ننام، شرع أبي والعمّ خوان يتذكّران أشخاصًا آخرين، أقارب ساروا على دروب مختلفة، مثل شقيقيه نرميسيو وبالبينا (وكلاهما تُوفّي منذ زمن بعيد)، وجيرانا من «فيريراس» هاجروا هم أيضًا ولم تُعرف عنهم أيّ أخبار، وغيرهم... إلى أن جاءت لحظة التزما بعدها الصمت لبعض الوقت من دون أن ينتبها إلى مراقبتي إيّاهما. وعندئذ شاهدت الدموع في عينيْ أبي للمرّة الأولى والأخيرة في حياته.

بقي هذا المشهد في ذاكرتي واستعدتُه مرارًا وكلّما فعلتُ شعرتُ بانفعال شديد. لقد رأيتُ أبي يبكي، أو بالأحرى يبذل جهدًا شديدًا لحبس الدموع، وهو الذي قلّما عبّر عن مشاعره. وما شاهدتُه أثارني جدًّا ليلتئذ وما يزال يثيرني حتّى الآن لا سيّما في

مثل هذه الأيّام التي تطغى عليها ذكراه. منذ قالوا لنا إنّه يحتضر، وصورةٌ له بعينها حاضرةٌ بقوّة في ذهني، ليست صورة الكهل الذي يحتضر على سرير مستشفى من دون أن يبدو على وجهه أيّ تعبير، وقد أُحيط بالأجهزة الطبّيّة، ولا حتّى صورته التي عاينتُ في حديقة دار المسنّين بـ«بالنثيا» حين زرتُه آخر مرّة، أو منظره في مطبخ بيتنا بالبحيرة قبل مغادرته... بل هي صورة وجهه في ليون، عندما كان وشقيقه خوان يستعيدان الأوضاع العائلية ويتذكّران جيرانا آخرين من فيريراس. إنّها ليلة استحضار لم تتكرّر مرّة أخرى. استحضار مَن تفرّقوا في جميع أنحاء البلاد، ومن هاجروا إلى خارجها من دون أن يتركوا خلفهم أثرا يدلّ عليهم.

أعتقد أن ذلك أثّر سلبًا في أبي. نعم إنّ الانفصالَ عن عائلته وأصدقائه، وفَقدَ الصلة بكثير منهم حتّى عبر البريد (ففي ذلك الزمان لم يكن هناك هواتف في البحيرة، عدا هاتف عموميّ في الحانة) هو أشدّ ما آلمه وأحزنه حتّى آخر أيّام حياته. وأذكر أنّه كان يتساءل أو يسأل من وقت إلى آخر عن شخص ما لأيّ سبب، مُتقصّيًا جديدَ هذا أو ذاك من الذين انقطعت أخبارهم منذ غادروا القرية؛ أو ممّن انقطعت صلته بهم قبل ذلك بزمن طويل. كان هناك أناس، على ما يبدو، فضّلوا قطع علاقتهم بجيرانهم القدامى وبدء حياةٍ جديدةٍ من الصفر حتّى لا يظلّوا يتذكّرون أشياء ضاعت ولا أمل في استرجاعها. وخلافًا لهؤلاء حافظت

عائلتي على صلتها بمن وجدت إليهم سبيلاً، لا سيّما أولئك الذين كانت بينها وبينهم علاقات صداقة. وبدا ذلك واضحًا أمس خلال جنازة أبي في كنيسة البحيرة لكثرة الأشخاص الذين جاؤوها من خارج البحيرة، وأغلبهم من ليون. ولَكَم شعرت بالزهو عندما شاهدتهم وبالأسى في الوقت نفسه!

معظم الحاضرين كانوا متقدّمين في السنّ. حتّى أولئك الذين بدوا شبابًا إلى حدٍّ ما بينهم من هو في الحقيقة أكبر عمرًا من الجميع. باختصار لم يكن أحد سنّه أقلّ من خمسة وأربعين عامًا، هي ما مضى من الزمن على واقعة إغراق القرية التي استحال بعدها أن يولد هناك أيّ شخص. بالطبع نحن الأكبر سنًّا ضمن الموجودين الآن لن ينفكّ عددنا ينقص بتقدّم الزمن، وسيُصبح الذين شهدوا ذلك وهم بالغون أقلّ فأقلّ، والحال أنّهم كانوا يملؤون الكنيسة خلال الجنازة لحضور قدّاس ساكن «فيريراس» القديم. وبعد القدّاس مر البعض ببيتنا، وعاد الآخرون وهم الأغلب -من دون أن يتأخّروا كثيرًا- إلى «ليون» وبقيّة الأماكن التي جاؤوا منها كمدريد مثلاً؛ مؤكّد أنهم كلّهم أحسّوا بتناقص عددهم مع مرور الوقت، وبتقدّمهم المُطّرد في السنّ وتفاقم غربة بعضهم عن بعض. فكثير منهم لم يلتقوا منذ زمن، وفيهم من لم يلتقوا منذ غادروا الوادي. وأعتقد أنّ هذا اللقاء بعد زمن طويل وفي مكان غريب (حتّى على فئة منّا نحن المنتمين إلى البحيرة)

أيقظ فيهم مشاعر متناقضة، وبالأخصّ لحدوثه في سياق وداعٍ آخر. ولعلّه لقاؤهم الأخير، فهم على حدّ قول أمّي ما عادوا يلتقون سوى في الجنائز.

والحقّ أنّ الأمر لم يكن دومًا على هذا النحو، فخلال السنوات الأولى -بحسب ما أتذكّر- كان بعض الأهالي يعودون لمشاهدة الخزّان فيلتقون والجيران القدامى مصادفةً، سواء بقوا هناك من أجل ذلك أم لا. وبعض سكّان القرى مثل قرية «فيجامايِن» ظلّوا يقيمون احتفالاتهم في المكان المعهود (ومنهم مَن لا يزال يفعل ذلك) ولو سلّمنا بأنّهم لم يُحافظوا جميعهم على الصِلات التي بينهم فالمؤكّد أنّ كثيرًا منهم فعلوا ذلك بقدر المُستطاع. لكنّ هذه الصلات بدأت تنقطع شيئًا فشيئًا مع مرور السنوات، وأصبحت معظمها مهدّدة بموت كبار السنّ، فهم من كانوا الأحرص على الذكريات، وهكذا أخذت العادات تتناقص وما عاد أحد يأتي إلى هنا إلّا بمفرده ومن دون أن يُعلن حضوره. لقد أصبح الأغلب منذ وقتٍ غير قصير يشعرون بأنّ هذا المكان ما عاد ينتمي إليهم. وفهِموا في الآن ذاته أنّ حضورهم لم يعد مُرحّبًا به من قِبل المُلّاك الجدد (مديري الخزّان والرعاة الذين يستغلّون المراعي المحيطة به) لا لأنّهم يهدّدون أمن المكان، بلِ لأنهم يذكّرون الآخرين بما لا يعرفون أو بما تجاهلوه طوعًا، وفي تقدير المُلّاك ذلك غير جيّد للمكان. طبعًا لو يُشاهدوننا الآن ويكتشفون ما جئنا من أجله

هذا الصباح لن يُعجبهم الأمر. وأحسبهم لن يقولوا شيئا لأنّهم لا يستطيعون الاعتراض، لكن من المؤكّد أنّ ما يجري لن يعجبهم. كلّ ما له علاقة بتاريخ هذا المكان يقلقهم، رغم علمهم بأنّنا لن نُحاسبهم عليه، فذلك التاريخ قد يحرّك وعي الناس الذين لا يعرفون (أو لا يريدون أن يعرفوا) ماذا يعني الخزان حقًّا.

حتّى وداعنا لأبي يعدّونه إثارة للقلاقل. أبي الذي لم يعد إلى هنا قطّ قبل اليوم ولم يرفع صوته طوال حياته ضدّ ما حدث ولا ضدّ ما رآه عندما ذهبنا إلى «بالنثيا»، المكان الغارق في الوحل، ولا عجب وقد كان مجرّد بحيرةٍ. لا أدري كم مرّة تذكّرنا تلك الرحلة منذ صعدنا يومئذ إلى الشاحنة ذات العربة الخشبيّة، لكن المؤكّد أنّ آخر مرّة حدثت عند قدومنا إلى هنا هذا الصباح. فالبيوت وأبراج الحمام وجداول الريّ والطرق بدت لي على حالها السابقة، والحقيقة أنّ كلّ شيءٍ كان مختلفًا جدًّا... وما قلته يصحّ أيضًا على الطريق الرئيسيّة. كلّ شيء تغيّر منذ ذلك اليوم، ولا غرابة، ما دمنا نحن أيضًا قد تغيّرنا، فأنا مثلاً لم أعد الطفلة التي تحملق من مقدّمة الشاحنة في القرى إذ نمرّ بها ونحن نسلك الطريق إلى السفح. أذكر أنّي كنتُ أجلس هناك برفقة صاحبها وأمّي وتريسا وأجوستين، أمّا أبي وخوسيه أنطونيو فقبعا في الصندوق الخلفيّ لحراسة الأثاث كي لا يسقط منه أيّ شيء. كنّا نجلس متلاصقين

إلى أقصى حدّ ممكن، وكانت الطريق سيّئة، لا كحالها الآن وقد أصبحت أشبه بطريق سياحيّة تملؤها السيّارات. نعم، عندما ذهبنا من هنا كدنا لا نلتقي في طريقنا بأيّ عربة، أو ربّما ذلك ما استقرّ في ذاكرتي.

وبغضّ النظر عمّا طرأ من تغييرات يُمكن القول إنّ المنظر العامّ بقي كما أعرفه: السهل ذو اللون الباهت يمتدّ بلا نهاية رابطًا «ساجون» بمكاننا هذا، وحقول ريّ كتلك المحيطة بـ«إسلا» والبورما، تُحيط هنا بالنهر وتصعد حتّى سفوح الجبال التي تعلوها فتقطع الأفق عند وصولها إلى «بونيار». لقد تغيّر العالم جدًّا في خمسة وأربعين عامًا، ربّما أكثر ممّا وددنا، ولكن الطبيعة ظلّت على حالها، إلاّ هنا في السفح، وهذا أمر طبيعيّ. فعدا جدار السدّ الإسمنتيّ الذي يشي بأنّ هناك تغيّرًا خلفه، كلّ شيء بقي على حاله منذ ألف سنة، أو ألف قرن، أو ملايين من السنوات... أو حتّى منذ خُلق العالم. وهذه الأرض ظلّت كما هي بالضبط، إلى أن قرّر أحدهم أن يعيد تشكيلها مُجدّدًا.

وممّا لا شكّ فيه أنّه أفلح في ما اعتزمه بالفعل، لكن ما أفلح فيه أيضًا، فضلاً عن حبس النهر وتغيير طقس المنطقة (إذ يُقال إنّ إنشاء الخزّان زاد الضباب والرطوبة)، هو تدمير حياة الكثير من الأشخاص أو على الأقلّ تغييرها تغييرًا جذريًّا. ولنأخذ حياتي أنا مثلاً، من يعرف كيف كانت ستجري لو أنّ هذا المشروع لم يتمّ،

وكذلك حياة أشقّائي أيضًا. أمّا حياة أبي وأمّي، فمن الواضح أنّها تغيّرت إلى الأسوأ، صحيح أنّ وضعهما المادّي لم يتدهور لكنّهما خسرا قسطًا كبيرًا من إحساسهما بالحياة. ففي نظر أبويّ كان فصلهما عن جذورهما من أجل إقامة الخزّان نفيًا من وطنٍ عاشا فيه طوال حياتهما، وهو ما أشْعَرَهُما بألم كبير. هكذا كانت أمّي تُعبّر عمّا جرى فيما ظلّ أبي يُحاول إخفاء الألم الذي سكن داخله، وكنّا نحن من عشنا معه نعرف الحقيقة.

من المحتمل أنّ هذا الألم هو ما دفعه إلى اتّخاذ قرار العودة إلى هنا عندما يستطيع، وها إنّه يُجسّد قراره الآن ولو بعدما تحوّل إلى رماد ومجرّد ذكرى. سوف يبتلع الخزّان الرماد، لكنّ الذكرى ستظلّ طافية معه وسوف يعود لاستقبالنا نحن الذين نعرفه كلّما عدنا إلى هذا المكان أو تنزّهنا بالقرب من هذه الجبال، ومن المؤكّد أنّ روحه ستظلّ تُعطّرها. مثلها مثل أرواح أجداده، وهم أجدادي أيضًا، أولئك الرجال والنساء الذين شكّلوا ذاكرتنا جيلاً بعد جيل؛ وما نحن الحاضرين هنا اليوم إلاّ ورثتهم. جميعنا بلا استثناء، حتّى أبنائي وهم المعروف عنهم اعتقادهم أنّ أوصاف قريتنا خيال محض يخصّني وحدي وأنّ من سكنوها ينتمون إلى عالم آخر هو ذاك الذي دأبت الجدّة أن تحكي لهم بعض حكاياته عندما كانوا يذهبون لرؤيتها في صغرهم، فيكادون لا يفهمون شيئًا، ويبدو لهم أن أصحاب تلك الحكايات بعيدون

عنهم جدًّا ولا يهمّونهم حقًّا. وذلك رغم ما بذلته من جهد مُستمرّ لتعريفهم بأجدادهم، لا احترامًا لهم فحسب (على أساس أنّهم أشخاص كبار السنّ) بل لما يمكنهم أن يتعلّموه منهم. ومازلتُ أخشى الإقرار بأنّني لم أُوفّق في ما أردت إلاّ قليلاً جدًّا، كي لا أشعر بأنّ الذنب ذنبي وحدي.

الذنب ذنبنا جميعًا، أنا على سبيل المثال عندما كنت صغيرة مثلهم، لم أكن أصغي لجدّتي وهي تحكي حكايات عائلتي في «فيريراس» أو في «أوتيرو» بلد أبويها الذي أصبح اليوم كومة من الرديم في الطرف الآخر من الخزّان (لا يمكن تمييزه من بين البيوت البعيدة)، ثمّ ندمت على ذلك مع مرور الزمن، لا سيّما عندما عشت في البحيرة، فقد حاولت مرارًا أن أتذكّر تلك الحكايات وفي كلّ مرّة كنتُ أستعيد معظمها ناقصةً، إمّا بلا نهاية، أو بلا بداية، أو أتذكّر مجرّد مقاطع متفرّقة من الحكاية لعدم اهتمامي بها إذ أُلقيت على مسمعيّ. ومن حسن الحظّ أنّ أمّي ساعدتني في استعادة بعضها، أمّا أبي فلطالما بدا مشغولاً عنّي. وإذا كان غير مشغول، يدّعي أنّه لا يتذكّر الطرائف والأشخاص كي لا تعيده إلى زمن يريد أن يدفنه في أعماقه تجنّبًا للألم. وبعدما تزوّجت وذهبت من هناك، آن الأوان لتنغلق ذاكرتي أنا أيضًا على ما عشته في ذلك البيت. فسنواتي في البحيرة كانت سعيدةً رغم كلّ الظروف، وسرّ السعادة أنّني وباقي العائلة عشناها معًا قبل

أن نتفرّق نحن الأبناء، وهو أمر حدث بسرعة فائقةٍ، حتّى إنّنا جميعًا كبرنا من دون أن ننتبه. وكنتُ أوّل من غادر رغم أنّي الثالثة في الترتيب العمريّ. ويُمكن القول إنّ ذهابي إلى «بالنثيا» للدراسة في مدرسة راهبات داخليّة جعل طفولتي تُغادرني فجأة.

وبالنظر إلى مغادرتي الباكرة، أحسبني أقلّ أفراد العائلة عيشًا في كنفها. وذلك طبعًا من أجل فرصة الدراسة، فهي رفاه لم تحصل عليه تريسا ولا حتّى طوني. رفاه اضطرّني إلى مُغادرة البحيرة، وترك أبويّ وأشقّائي. كم افتقدتهم، وكم اشتقت إلى تلك القرية الحديثة البناء التي بدأت من الصفر لكنها في نظري أفضل ما في العالم. وطبعًا كان شوقي الأكبر إلى أبويّ، والأخصّ منهما ذلك الرجل الذي جئنا اليوم لوداعه، فهو عندي مثال الشرف وحبّ العمل. وربّما لأنّه لم يكن مُؤهّلاً لعمل آخر غير عمله أبدى فيه تفانيًا وجدّيّة ملحوظين طوال حياته، وظلّ يعمل حتّى عندما لم يعد قادرًا على ذلك، كي يساعد أجوستين خلال مدّة وجوده في العاصمة، ثمّ كي يُقاوم الكآبة التي تملّكته منذ قرّر شقيقي تركه بلا رجعة، وذلك مفهوم من رجل يرفض أن يرى الحقل قاحلاً بعد كلّ الجهد الذي بُذل فيه (جهده هو والعائلة كلها) لاستزراعه مجدّدًا.

ومهما يكن من أمر، يستطيع منذ الآن أن يرقد في سلام بعد كفاحه الطويل، وعمله الدؤوب، ونهوضه المُتكرّر إثر كلّ ضربة

يتلقّاها، وبعضها كانت كفيلة بأن تقضي على أي شخص لا يملك القوّة اللازمة لمجابهتها. هو ذا يعود إلى هنا بعد رحلة حياةٍ عاشها بضمير مرتاح وكرامة، فلم ينحن خلالها أمام أحد ولم يستجد شيئًا من أحد. كلّ ما حصل عليه كان نتيجة جهده وعرقه، وها قد قدّمه لنا راضيًا، نحن أبناءه الأربعة الحاضرين هنا الآن، من دون أن ينتظر مقابلاً أو يطلب شيئًا حتّى في سنوات شيخوخته بكلّ ما صاحبها من أمراضٍ ومُنغّصات ما انفكّت تتداول عليه إلى أن لفّته عوالم ضبابيّة لم يعد منها. ذاك هو الدرس الذي علّمني إيّاه على الأقلّ. فعلى امتداد سنوات عيشي معه، وأيضًا خلال السنوات الإحدى والأربعين التي تلت تركي البيت، حاولت الاقتداء به لئلاّ أسقط في ذلك الضباب المؤدّي إلى الجنون وقد أخذ يُطاردني منذ ذلك الحين. حتّى مولد أبنائي لم يُنسني والديّ وتلك القرية الطالعة من اللاشيء لأجلهما ولأجل أشخاص آخرين مثلهما يعيشون في هذا الوادي المقفر بـ«بالنثيا».

الشيء الوحيد الذي يؤلمني أنّني لم أقل له هذا قطّ، فذهب من دون أن يعرف ما كنت أشعر به نحوه خلال الزمن الذي ابتعدت فيه عنه جسدًا وعاطفةً. وما لم أكن قادرة على إبلاغه به خلال حياته سأخبره به الآن: إنّه وأبنائي الأشخاص الأهمّ عندي، وطبعًا معهم أمّي، وقد كانت الأشجع من بين الجميع. بالأخصّ منذ ليلة ليون التي رأيتها فيها تحبس دموعها كما تحبسها الآن.

إميليو

لقد أحسنت بمجيئي، حتّى وعلاقتي بفيرخينيا ما تزال على حالها. أجل، حسنًا فعلتُ إذ جئتُ رغم تردّدي في الحضور الذي استمرّ إلى غاية هذا الصباح، عندما كنت على وشك العودة إلى «سانتاندير» مباشرة من دون القدوم إلى هنا لحضور الوداع الأخير لِصهري. أعرف أن أولادي سوف يشكرونني على ذلك، وأيضًا عائلة زوجتي، أمّا هي فلن تفعل، لأنّها ما تزال متألّمة منّي. فمنذ انفصالنا صارت تشعر نحوي بالنفور ولم تخفّ حدّة شعورها هذا ولو يومًا واحدًا. لقد مضت على انفصالنا ستّة أعوام، وهو زمن كاف لتعتاد على ذلك.

أذكر أوّل مرّة اصطحبتني فيها إلى هنا، حيث الخزّان، لتريني المكان الذي وُلدت فيه. حدث ذلك بعد تعارفنا بوقت قليل، ونزولاً عند رغبتها جئنا في سيّارتي، وكنت قد اشتريتها حديثًا ودفعت ثمنها من مدّخراتي خلال عامي الأوّل من العمل بالمعهد. كانت فيرخينيا تريد أن تريني هذا المكان الذي لم تعد إليه أكثر من مرّتين منذ أن هجّرهم الخزّان. وبحسب ما قالته لي هو

عندها أمر مهمّ جدًّا، ولذا أرادت أن تُريني إيّاه. أذكر ايضًا أنّنا بعد خروجنا من «راينوسا» عبرنا منطقة المناجم كلّها، من «ثربيرا» حتى «ثيستيرنا» المُنتمية إلى محافظة ليون، ومن «ثيستيرنا» حتّى هذه الجبال عبر طرق مليئة بالمنحنيات وبشاحنات تذهب وتجيء ناقلة الفحم من مكان إلى آخر. أمّا اليوم فقد تغيّر كلّ ذلك، وصرنا عند قدومنا من «بالنثيا» نسلك طريقًا مستقيمة بلا مُنحنيات حتّى بونيار، على بعد عشرة كيلومترات من الخزّان.

لعلّ حكاية هذه الرحلة موجودة خطّيًّا في مكان ما. إذ كنت في تلك الأيّام أسجّل كلّ شيء، ولم تكن الكتابة قد تخلّت عنّي بعد. ولا بدّ من القول إنّني خلال سنواتي الأولى في مهنة المعلّم، ظللتُ أحلم بأن أصبح كاتبًا وجعلتُ الكلمات شغفي الأوّل، فما انفككت أدوّن كلّ ما أفعله أو يحدث لي، لا سيّما ما ينقصني، وما يملؤني تمامًا. وفي ذلك اليوم، مع فيرخينيا الجالسة إلى جانبي ونحن نقطع أرضًا جديدةً علينا، بدا لي أنّني أسعد رجل في العالم، وهو عكس شعوري اليوم، فما أشعر به الآن أنّني فاشل، رجل لا يقدر حتّى على حضور جنازة صهره بالعزم الذي يجب أن يبدر منه. لقد شكرتني حماتي وأصهاري لحضوري، وهذا الشكر يزيد من إحساسي بعدم الانتماء إلى هذه العائلة. لو استمررتُ مع فيرخينيا، لما شكرني أحد على أمر من واجبي فعله.

أعلم أنّ أبنائي أيضًا ممتنّون لحضوري، فهم يُدركون صعوبة

ذلك عليّ، ليس لعدم شعوري بفقد جدّهم، فأنا أشعر بهذا حقًّا (إذ كانت علاقتي به طيّبة)، بل لأنّ أمّهم لم تكن تبادلني أيّ كلمة، ما يجعل وجودنا في مكان واحد أمرًا صعبًا. حتى لو كان مكانًا مفتوحًا ويُتيح للجميع مثل هذا المشهد الطبيعيّ الرائع الزاخر بالماء والطيور وأجراس الأبقار المُضفية مسحة دراميّة على مشاعر فيرخينيا وعائلتها، وهم على وشك أن يعيشوا اللحظة القصوى: لحظة إلقاء رماد أبيها إلى الخزّان، ما يعني تأكيد وداعها له إلى الأبد. فمادام رماده موجودًا مع تريسا في القارورة الجنائزيّة، سوف يبقى في هذا العالم ولو على هيئة حفنة من التراب. أمّا عندما يبتلعه الماء فسينتفي وجوده لدى جميع أفراد العائلة مهما طال زمن تذكّرهم له.

لذا هي لحظة صعبة، صعبة مثل حضوري الآن لمواكبتها، وكلّما مرّ الوقت أجدني أقلّ انتماءً إليها، ولستُ أعني بذلك وضعي الآن في تلك العائلة التي كانت عائلتي خلال سنوات ولم أعد فردًا منها منذ تزوّجت مرّة أخرى، ولا حتّى مكاني في هذا الموكب (فقد وقفت إلى جوار أبنائي تجنّبًا للإحراج لأنّني لم أعد مرتاحًا في وقوفي إلى جانب فيرخينيا)، رغم اقتضاء الواجب أن أكون إلى جوارها هي كي لا أُحرِج الآخرين منّي، وبعضهم، مثل جماعة برشلونة لم ألتقِهم منذ انفصالنا، وحتّى الباقون لم أجتمع وإيّاهم سوى مرّة أو مرّتين. أنا هنا الآن كائن غريب، شأني شأن

العروس الإيطاليّة للابن الأكبر لطوني، والمسكينة تبدو مثلي بالضبط: تراقب الآخرين من دون أن تعرف جيّدًا ما يجب عليها أن تفعله. لكنّ وضعي أشدّ حرجًا من وضعها. فمهما يكن من أمر هي أجنبيّة، ومن الممكن أن يغفروا لها أيّ هفوة لأنّ عدم معرفتها شيئًا عن عادات البلاد أمر طبيعيّ، إذا وضعنا في الحسبان حداثة عهدها بهذه العائلة (يا لها من لحظة غير مناسبة حقًّا، للانضمام إليها)، أمّا أنا فليس لي أيّ عذر يبرّر حرجي. وما سبب هذا الذي أشعر به إلاّ أمر بسيط للغاية هو قدومي إلى هنا بإرادتي لا غير، أي من دون دعوة، فقد رافقت فيرخينيا لكونها جزءًا من العائلة وأنا مرتبط بها، مجرّد إنسان شاركها حياتها طوال ثمانية عشر عامًا ثمّ أصبح منذ ستّ سنوات وحتّى اليوم شخصًا غريبًا عنها وعن أهلها، والحال أنّ أولادي يشكّلون جزءًا من العائلة، ونصف دمائهم جاءت من عندي.

أولادي هم أفضل ما أملك. بل أفضل ما يربطني بالعالم مهما خُيّل إلى فيرخينيا أنّهم أولادها وحدها. لقد منعتني من رؤيتهم زمنًا، إلى أن حصلنا على حكم بالطلاق، وبفعل الحكم تراجعت مُجبرة، وأيضًا لأنّ خيسوس ولاورا بلغا سنّ الرشد، وهو ما أنهى قدرتها على منعنا من البقاء معًا متى أردنا (أمّا فيرخينيا الصغرى فوضعها مختلف، لأنها في الرابعة عشرة من عمرها، ما يجعلها تحت وصاية أمّها). المهمّ إذن أنّ أبنائي الثلاثة هم من دفعوني إلى

الحضور لأقوم بواجب الوداع الأخير للجدّ. كان رجلاً طيّبًا وشريفًا، مهذّبًا وفق الطريقة القديمة وقليل الكلام، ورغم قلّة كلامه لطالما تواصلت وإيّاه حين كنت جزءًا من العائلة. أعتقد أنّه فيما بعدُ بغضني، ومنذُ انفصالي عن ابنته توقّفت عن الذهاب إلى بيته، لكنّي ظللت أتذكّره، وأتذكّر الأحاديث التي كنّا نتبادلها عندما نذهب لقضاء الصيف في البحيرة (والتقينا أيضًا مرّات في برشلونة، لكنّ ذلك جرى في السنوات الأولى، قبل أن تكفّ أسرتي وأسرته عن الذهاب إلى هناك للتصييف). كنت أرافقه إلى الحقل أو إلى أيّ مكان آخر لنلبث معًا، فهو قليل الكلام في البيت، أمّا هناك فيحدث أن يتبسّط ويحكي لي الكثير من النكات، وبعضها مثيرة جدًّا، حتّى إنّي سجّلتها في صيغة قصص. وفضلاً عن ذلك هو ذو آراء وجيهة في الحياة وفي الواقع الذي يعيش (ونعيشه جميعًا)، فإذا تحدّث عن السياسة أو الزراعة أجد آراءه جادّة جدًّا لا يستطيع الإنسان معارضتها بل إنّه سيؤيّدها في أغلب الأحيان. كانت له طريقته الخاصّة في التفكير، وفي عرض مواقفه من دون أن يتسبّب في إزعاج الآخرين، لكنّه تميّز أيضًا بالحزم في الدفاع عن مواقفه، وبأسلوب مخصوص في الإصغاء وفي الكلام المُقنع، كأنّما المهمّ عنده هو صيغة الكلمات لا معانيها. في ذلك الزمن كنت مُولعًا بكلّ هذا الذي ذكرته، وبغضّ النظر عن ولعي كان حمي مقنعًا، وسماعه يشعرني بالسعادة. ومن

المؤسف أنّ زياراتي قلّت بالتدريج جرّاء شواغل الحياة (الأولاد وقد كبروا، وتعليمهم، واستحالة ضبط إجازاتنا في بعض الأحيان بما يُلائم من كانوا في بلد الوليد واعتادوا الذهاب إلى هناك طوال شهر أغسطس). ثمّ توقّفت عن الذهاب نهائيًّا بعد انفصالي عن فيرخينيا، وهو أمرٌ أصاب عائلتها بالإحباط بحسب ما أعلم، ولا عجب وقد ظللتُ ثمانية عشر عامًا جزءًا من العائلة وأحدَ أفرادها.

ويُمكن القول إنّهم حتّى هذه اللحظة ما يزالون يعدّونني كذلك إلى حدٍّ ما، وبطبيعة الحال لستُ أقصد فيرخينيا، ولا حتّى حماتي. لا أُنكر أنّها شكرتني على حضوري قدّاس حمي أمس بالكنيسة ومجيئي صباح اليوم أيضًا لأشاطرهم أحزانهم في هذه اللحظة الصعبة، لكنّها لم توجّه لي بعد الشكر أيّ كلمة (مؤكّد أنها غير راغبة في ذلك)، أمّا أصهاري وأبناؤهم فقد رحّبوا بي على أساس أنّ انفصالي أمر يخصّني أنا وفيرخينيا فقط، وأنّه -وهذا مهمّ- حدث منذ زمن طويل، وفي جميع الأحوال هو فصل من حياتنا الشخصيّة. وتبعًا لما تقدّم عاينتُ فرح تريسا وميجيل برؤيتي مجدّدًا رغم حالة الحداد المؤلمة التي كنّا فيها. ولم أذكر أجوستين لأنّه على ما أعلم لطالما عدّني صهره المُقرّب، ومنذ التقينا أمس في الكنيسة بدا شديد التأثّر برؤيتي. وفي ما يخصّ أبناء أصهاري لا أستطيع قول شيء، إذ كانت آخر مرّة شاهدتهم فيها

وهم بعدُ صغار جدًّا، حتّى إنّي اليوم بذلت جهدًا كبيرًا لتمييز بعضهم. وربما حدث لهم الأمر نفسه حين مثلتُ أمامهم، فستّ سنوات وقتٌ طويل على شخص كان عمره عند بدايتها أقلّ من العشرين.

تعرّفت إلى فيرخينيا وأنا في الثامنة والعشرين، وهي أصغر منّي بثلاث سنين. جرى ذلك في بداية عهدي بـ«راينوسا»، ولقد وصلت إلى هناك لأعمل في إحدى مدارسها معلّمًا. لم يكن شعر فيرخينيا الأشقر ولا عيناها الزرقاوان من الملامح الغريبة في تلك المنطقة، بل بالعكس، لكنّ عينيها بدتا لي مختلفتين، وفيهما شيء خاصّ. وبعد مضيّ عامين على تعارفنا تزّوجنا، خاتِمين بذلك فترة خطوبة ثريّة ومليئة بالرومنسيّة كتبتُ لها خلالها قصائد عديدة إمّا لتقرأها في أوقات خلوتنا، أو لأرسلها في ظرف إلى سكنها المشترك بينها وبين معلّمات أخريات. وكان دأبها أن تقضي نهايات الأسبوع في البحيرة مع أبويها، فأظلّ أنتظر عودتها بلهفة مراهق. ثم بدأت تلك المشاعر تخفت بانقضاء سنوات عديدة من الزواج ومولد أبنائنا الثلاثة حتّى ماتت تمامًا. ويُمكن القول إنّ عاطفة الشباب وحبّنا المُتبادل ماتا معًا كأنّهما شيء واحد. لكنّ فيرخينيا لم تقبل ذلك. وما أشبه حالها بحالي في البداية، إذ لم أكن أعي أن الحبّ أيضًا يموت مثل الأشخاص. المهمّ أنّها رفضت قبول نهاية حبّنا، ولم تسامحني على موت مشاعري. وما انفكّت تُحمّلني وزر

وضع مؤسف لا ذنب لأحد فيه، لا أنا ولا هي.

أمّا خيسوس ولاورا فقد شرحت لهما الأمر وتقبّلاه، وسأشرحه أيضًا لفيرخينيا الصغيرة في يوم من الأيّام عندما تكبر. والمُعضلة أنّي لا أستطيع فعل ذلك مع طليقتي وأهلها. هي لعدم رغبتها في الإصغاء إليّ وهُم لتراجع اهتمامهم بما جرى وقد مضت على انفصالنا ستّ سنوات، مع استثناء حماتي، فمثلها مثل أبويّ ترى الزواج ارتباطًا وعيشًا مُشتركًا مدى الحياة. إنّها تنتمي إلى جيل يُقدّس الوفاء، سواء كان للأفراد أو حتّى لأمكنة بعينها.

في كثير من الأحيان أتمنّى أن أكون مثلهم، هؤلاء الرجال والنساء الذين يرون السعادة في الوفاء للآخرين والقناعة بأقلّ الأشياء. قد أقنع أنا أيضًا بالقليل، لكنّ شعوري بالحاجة إلى أشياء أخرى أشدّ من شعورهم بها، ومن ذلك مثلاً أنّي أرغب في التعرّف إلى أشخاص آخرين وزيارة أماكن أخرى مختلفة عن التي حللت بها بمولدي. هكذا هو تفكيري منذ وُلدت ومع مرور الأيّام ازددتُ فضولاً. ولعلّني لهذا السبب عمدتُ إلى الكتابة منذ مراهقتي، ولم أنفكّ أغيّر مكان عملي حتّى تعرّفت إلى فيرخينيا وتزوّجتها. لقد تنقّلت من «سانتاندير» إلى «بورجوس» ومن «بورجوس» إلى «راينوسا»، ثم منها إلى «سانتاندير» مجدّدًا. كنتُ في حاجة دائمة إلى خبرات جديدة، وما أزال حتّى اليوم أشعر بالاحتياج نفسه ولو بحدّة أقلّ، هذا مؤكّد. لكنّي في أوقات

بعينها، ومنها اليوم، أودّ لو أكون مثل الأشخاص الآخرين، مثل أبويّ وأبويْ فيرخينيا الذين ظلّوا جميعهم في المكان نفسه طوال حياتهم (إذ غضضنا النظر عن انتقال أهل فيرخينيا إلى مكان آخر قسرًا) ومع الناس أنفسهم إلى الأبد، يمارسون العمل ذاته وهم سعداء. في الظاهر على الأقلّ كانوا سعداء حتّى النهاية، وهذه غاية لا أستطيع القول إنّي حقّقتها رغم صرفي حياتي كلّها بحثًا عنها. ألا يكون سبب إخفاقي أن سرّ السعادة هو القناعة بما تملك؟ أليست السعادة هي الرضا بما حصلت عليه بمجهودك الخاصّ، وبحبّ القليل من الأشخاص الذين تضعهم الحياة في طريقك، وبما يوفّره لك الوفاء من سكينة برفقة امرأة تعرّفت إليها في أحد الأيّام وبدت لك عندئذ أفضل نساء العالم؟ وما دامت قد بدت لك الأفضل، لِمَ لا تكون كذلك بالفعل؟

كلّ هذا جميل، لكنّي لا أعتقد أنّه صحيح. مهما حصّلت من تلك السعادة عليك أن تبدأ من الصفر. لئلّا تتحوّل إلى شخص آخر، (شخص يشبه حماك وحماتك، وأبي وأمّي، وكلّ الآباء الذين عرفتهم، وبالأخصّ من جيلهم) وتعيش كما عاشوا هم: من دون أن تطمح إلى غاية أخرى سوى السعادة رغم علمك بأنّها غير موجودة.

من حسن الحظّ أنّ أبنائي موجودون فعلاً، وكلّما احتجت إليهم ألفيتهم بجانبي، كما في هذا الصباح.

لاورا

مسكينة أمي، كم بكت خلال هذين اليومين! ترى هل أبكي أنا عندما يموت أبي؟ عندما تموت هي مؤكّد أنّي سوف أبكي، لكن هل أبكي أيضًا عندما يموت أبي؟ أشكّ في ذلك، ليس لأنّني لا أحبّه كما أحبّ أمّي، بل لأنّ علاقتي به مختلفة. فأنا أراه أقلّ مما أراها، مع أنّني في الوقت الراهن، يمكنني أن أراه دومًا وفي أيّ وقت أريد.

أمّا الجدّ فقلّما كنت أراه، وبالأخصّ في السنوات الأخيرة. وربّما هذا ما جعلني لا أشعر بموته، ولا أبلغ من الحزن مبلغ أمّي، وخالتي تريسا. هي بالذات بدت متأثّرةً جدًّا، سواء في الكنيسة أمس خلال القدّاس، أو اليوم خلال حضورنا إلى هنا، كلّ أسرة بسيّارتها الخاصّة، واحدة خلف الأخرى (جاءت الجدّة مع خالي ميجيل، وجاء الخال أجوستين مع أبي في سيّارته، وفي العودة سوف يذهب أبي من هنا إلى سانتاندير مباشرة)، والحقّ أنّ الجميع متأثّرون جدًّا لكنّهم لا يعبّرون عن مشاعرهم بالطريقة نفسها، فالخال طوني، مثلاً، لم يذرف سوى دمعةٍ واحدةٍ بصعوبةٍ، والخال

أجوستين لم يقارب البكاء ولو قليلاً.

أشعر بالأسى عليه، ففي نظري ونظر العائلة هو من سيبقى وحيدًا، لكنّه لا يقول شيئًا، وكلّما حدّثناه في أمر من هذا القبيل يكتفي بالنظرة الحزينة لا غير. ذاك دأبه منذ عرفته، إذا لم يجد كلمات يردّ بها يكتفي بالنظر. إنّها طريقته في العيش، أجوستين المسكين، هو ليس أبلهًا كما يعتقد بعض الناس، لكن تنقصه خبرة الحياة. ولهذا السبب حاول جدّاي تدليله أكثر من أبنائهم الآخرين، وخصّه سكّان البحيرة بمعاملة فيها كثير من الرقّة، وربّما أيضًا لأنّه شخص طيّب جدًّا.

لطالما أحبّته أمّي حبًّا جمًّا. وكذلك أشقاؤه الآخرون، لكن عندما ينتهي كلّ هذا، ويرقد رماد الجدّ في قاع الخزّان ونعود جميعًا، أوّلاً إلى البحيرة، ومن هناك يمضي كلٌّ إلى المدينة التي يعيش فيها، سوف يبقى الخال أجوستين وحيدًا في البيت الذي ما يزال على ذمّته بعدما غادره أبواه إلى دار المسنين، سيظلّ فيه وحده، وسوف تكون وطأة الوحدة أشدّ من أيّ وقت مضى رغم أن جدّيّ لم يعودا إلى البحيرة قطّ منذ دخلا دار المسنّين وفقد جدّي ذاكرته فقدانًا كاملاً. لقد ظلّ خالي طوال تلك الفترة يعيش في البيت وحده لكنّه كان يعلم أنّهما هناك بالقرب منه. أمّا بدءًا من الغد فستكون الجدة في دار المسنّين بمفردها. ولعلّها تعود إلى البيت، إن أرادت ذلك. ومهما يكن قرارها، من الواضح أنّ

وحدة الخال أجوستين سوف تزداد حدّة، ولو لم يبدِ هو أيّ انزعاج لذلك. إنه معتاد على الوحدة منذ صغره، فقد رحل أشقّاؤه عن البيت واحدًا بعد الآخر تاركين إيّاه وحيدًا مع أبوين ما انفكّا يتقدّمان في السن.

أرجو ألاّ يحدث الأمر نفسه لشقيقتي مع أمّي. صحيح أني وخيسوس ما نزال نعيش في البيت، لكنّنا بعد وقت قصير سوف نذهب وتبقيان هما معًا. وما أنا بصدد التفكير فيه -على الأقلّ- أن أواصل حياتي بالقرب منهما ما أمكنني ذلك. إلاّ إذا اضطررت إلى الذهاب للعيش في مدينة أخرى، وهو ما لا أريده. عليّ أن أزورهما باطّراد، وأن أواصل زيارة أمّي بعد ذهاب أختي، لأنّ ذلك سيحدث لا محالة، وأمّي منذ فارقها أبي، صار أشدّ ما يشغلها، فضلا عن مستقبل أبنائها، هو مسألة بقائها وحيدةً في يوم ما. وأعتقد أنّ موت جدّي قد أثّر فيها أكثر ممّا أثّر في إخوتها لمعرفتها -مثلها مثل خالي أجوستين- بحاجتها المُلحّة إلى وجوده.

لكنّه مات. أجل، مات الجدّ ولم يبق منه سوى حفنةِ رماد تستعدّ خالتي تريسا لنثرها فوق مياه الخزّان حالما تفتح القارورة الجنائزيّة التي جاءت بها. إنّه لأمر لا يُصدّق أن يتحوّل إنسان إلى مجرّد رماد مثل هذا! وها قد حصل. جدّي الذي ظلّ جسده فارعًا حتّى في شيخوخته، بل أظنّه على عكس المُنتظر تمدّد أكثر بسبب سكونه وقلّة حركته يتحوّل في النهاية إلى حفنةٍ من الرماد تكاد لا

تملأ علبة صغيرة تُحمل بيد واحدة. حفنة رماد تُلخّص مسيرة الحياة. وخلال لحظات، عندما تتمكّن الخالة تريسا من فتح العلبة الصفيح (ويبدو أنّها تجد صعوبة في ذلك)، سوف نلقي بها إلى الماء مع باقة من الورد التقطتها جدّتي أمس من الصندوق الجنائزيّ قبل أن يأخذوه إلى المحرقة وتختفي معه أقواس الزهور. لكن أين هي؟ من الذي أخذها؟ هل أخذتها الخالة تريسا إلى بلد الوليد؟ أم أخذها أحد جيراننا في البحيرة إلى المقبرة؟ أم ظلّت في الكنيسة المطليّة بالأبيض والأحمر مثل كلّ بيوت القرية؟ تلك الكنيسة التي أثبت ازدحامها بالأمس أنّ جدّي محبوبٌ جدًّا.

مهما يكن، فالزهور المنتشرة حول الخزّان في هذا الصباح من إبريل أجمل من تلك التي اختفت. إنّها تمتدّ من حولنا حتّى شاطئ بحيرة الخزّان، وفيها الأقحوان وأنواع أخرى من الزهور البريّة (هكذا بدت لي. سوف أسأل جدّتي عنها، ولا شكّ عندي في معرفتها بأنواعها) كأنّها نبتت خصّيصًا لتودّع هذا الرجل، فبحسب ما حكته لنا الجدّة ونحن في طريقنا إلى هنا، كان كثير القدوم إلى هذا المكان مع أغنامه إذ يسوقها عائدًا إلى بيته وذلك قبل بناء الخزّان وإجباره وأهله على الرحيل. ولسوف تبقى هذه الزهور لترافقه زمنًا طويلاً، ستنتشر طوال أيّام الربيع كحالها هذا الصباح في هذا المكان الذي اختاره الجدّ مُستقرًّا أخيرًا له. ترى هل يوُجد مكان أفضل منه لسكونه في سلام بعد عمر طويل من

العمل الشاق؟

ها قد تمكّنت الخالة تريسا -بعد لأيٍ- من فتح القارورة الجنائزيّة التي بها الرماد، بمساعدةٍ من الخال طوني. إنّهما الشقيقان الأسنّ، وهذا يجعلهما يمارسان دور رئيسَي العائلة. أمّا أمّي وخالي أجوستين، وهما الأصغر سنًّا، فينفّذان ما يُطلب منهما، رغم عدم موافقتهما عليه في أغلب الأحيان. تقول أمّي إنّها تفضّل الخضوع على خوض النقاشات، وبالأخصّ مع الخالة تريسا المعتادة على تنظيم كلّ شيء. وخالي أجوستين أيضًا -وهو الأكثر اهتمامًا بجدّيّ لقربه منهما- يعترف برئاسة شقيقيْه. لقد ذهبتُ هذا الصباح لاصطحابهما إلى مقبرة بلد الوليد التي أُحرق فيها جثمان الجدّ، بسبب عدم وجود مكان لذلك في بالنثيا، على ما يبدو. ومنذ اللحظة الأولى أخذت الخالة تريسا قارورة الرماد الجنائزيّة ولم تتركها لأحد حتّى الآن، عندما تمكّنت من فتحها في لقطة مليئة بالعاطفة الجيّاشة زادت من صعوبة حملها. وها إنّنا جميعًا نتأمّل ما في القارورة الجنائزيّة صامتين، كأنّ رهافتها تعيد الجدّ إلى ذاكرتنا، بل إلى ذاكرة كلّ واحدٍ على طريقته ووفقًا لحالته، فذكرى الجدّ محفورة في ذاكرة كلّ منّا. أنا مثلاً، أتذكّر ذلك المساء الذي رافقته فيه -ومعه جدّتي- لرؤية البحر عند شاطئ «الساردينيرو». كان ذلك عند قدومهما الأوّل إلى «سانتاندير» لزيارتنا، وقد جرى عقِب انفصال أبويّ وأنا في السادسة عشرة من عمري. ولم يكن

جدّاي قد خرجا من البحيرة من قبل أو غادرا قريتهما في تلك الجبال، ولا قد شاهدا البحر سوى مرّةٍ واحدةٍ، خلال عرس خالي طوني في برشلونة. وهناك في «الساردينيرو» ظلّ جدّي يتأمّل البحر في صمت، حتّى عندما جلسنا أنا والجدّة على مقعد بالقرب من كورنيش الشاطئ استمرّ يتأمّله من دون أن يشعر بما يجري حوله. كان ظهره للشمس لحظة هبوط المساء، (وكنّا في شهر ديسمبر ما يعني أنّ الفصل شتاء، واليوم فيه قصير)، وبانعكاس الظلال على ملامحه بدا كأنّه غريق، بحّار من الأرض اليابسة معتاد على مواجهة كلّ أنواع العواصف، لكنّه يتضاءل في مواجهة البحر الحقيقيّ.

أستعيد الآن تلك الصورة وأنا أرى قارورة جنائزيّة تضمّ رماده فأشعر بحضوره في ذلك المساء الذي لن أنساه أبدًا، كما لن أنسى هذا الصباح من إبريل وهذا المشهد المليء بالزهور التي يُخيّل إليّ أنّها نبتت وازدهرت من أجل جدّي، لترافقه في رحلته إلى العالم الآخر من هذا المكان الذي اختاره بنفسه. في نهاية المطاف كلّ شيء سوف يصبح حقيقة ويتحوّل إلى مجرّد مجموعة من المشاهد، بعضها مشاهد طبيعيّة تؤطّرها الطبيعة نفسها، والبعض الآخر مشاهد أشخاص يرافقوننا إلى الأبد حتّى ونحن لسنا هنا في هذا العالم لنتذكّرها. هذه هي الحياة، كما يقول أبي.

خيسوس

لقد حانت لحظة الوداع.

وبحسب ما أراه يبدو أنّ خالتي تريسا أو جدّتي -لا أعرف من منهما بالضبط- سوف تلقي برماد جدّي إلى الخزّان وعندئذ سوف ينتهي كل شيء يخصّه. لقد أصبحت المشاعر واضحة، جميعنا هنا إلى جوار الشاطئ، نحيط بالجدّة وقد احتلّت المركز وسط المجموعة، ونلتزم الصمت من دون أن نعرف ما علينا فعله، ولا كيف نعبّر عن مشاعرنا. هناك من ينظر إلى الماء؛ مثل أبي، ومن ينظرون إلى السماء، مثل الخال ميجيل (وأعتقد أنّه يتلو صلاة). أمّا أبناء أخوالي وخالاتي فكلٌّ منهم يرسم على وجهه تعبيرًا مختلفًا. والظاهر أنّ معظمهم يحضر مثل هذا النوع من الطقوس لأول مرّة.

لم أتخيّل أن يقع هذا من أجل الجدّ، حقًّا لم أتخيّل هذا البتّة، ولم أتوقّع حدوثه لأيّ فرد من العائلة، لا لجدّي ولا لجدّتي، فهي متديّنة جدًّا. وكلاهما يناسبهما الدفن على الطريقة التقليديّة القديمة، هناك في مقابر البحيرة، إلى جوار جيرانهم، أمّا هنا فلا،

من غير المعقول أن يصبحا مجرّد حفنةٍ من الرماد كأنّهما عاشا مُلحدين. هذا رأيي حتّى بعدما بيّنت لي أمّي السبب، وهو أنّ الجدّ كان يريد العودة إلى المكان الذي وُلد فيه، وما من طريقة غير هذه لتحقيق وصيّته.

أي اعتقاد في الجذور! في ما يخصّني، أنا من نظرتُ إلى سانتاندير باستمرار كمدينة غريبة عنّي رغم تذكّري أنّني وُلدت فيها، سيظلّ يدهشني اعتقاد الناس في العودة إلى جذورهم المكانيّة، سواء كانت ممّا حافظوا عليه أم ممّا فقدوه في يوم من الأيام. فأمّي مثلاً تعدّ البحيرة إحدى مُخيَّلاتها التي لا يمكن التخلي عنها أبدًا، والحال أنّها غادرتها منذ سنوات عديدة.

لذلك لا يبدو غريبًا أنّ جدّي لم يغادر هذه الجبال قطّ مُغادرةً حقيقيّةً، والدليل على ذلك القرارُ الذي اتّخذه. لقد أراد أن يعود إلى هنا ولو روحيًّا فقط. وما يدهشني أكثر من أيّ شيء آخر هو قبول جدّتي لقراره واستعدادها لتنفيذ رغبته، وهي المرأة المحافظة التي نعرف. ها هي هنا، تكاد تتوغّل في ماء الخزّان الذي يغطّي مشاهد حياتها، أو بالأحرى النصف الأوّل من حياتها، فالنصف الآخر قضّته بعيدًا، لكنّها لم تنس ما كان بل ظلّت تتذكّره رغم كلّ شيء. إنّها على استعداد لأن ترى الرجل الذي شاركته حياته حتّى أمس يختفي إلى الأبد تحت هذا الماء، مثل قريتها، ومثل ماضيها، ومثل ذكرى حياتها هنا منذ كان الخزّان مجرّد فكرة خياليّة، أو

كلمة مجهولة لدى الناس، أولئك الذين كانوا يعيشون على ثقة بأنّ الفكرة لن تُنفّذَ أبدًا رافضين أن يصدّقوا وجود ذلك التهديد. هذا على الأقلّ ما حكته لي أمّي وجدّتي أيضًا عندما كنت أذهب إلى البحيرة في صباي. وكانت الجدّة تحكي بألم أشدّ، لأنّها عاشت حياتها هنا بكلّ عنفوانها.

أمّا الجدّ فلم يكن يتحدّث عن هذا (على الأقلّ أنا لم أره يفعل ذلك قطّ)، لكنّ رغبته في العودة إلى هنا دليل قاطع على حنينه إلى هذا المكان. وحسب قول أمّي لقد أعلمتها الجدّة برغبته منذ سنوات ولم تُعلم بها بقيّة أشقّائها إلاّ حينما أخبرتهم بموته. والحقّ أنّ إحراقها جثمانه، أمر كان من الصعب على عقلها تقبّله ولو على سبيل الاحتمال، لكنها قامت به. وهذا ما تبقّى منه: حفنة من الغبار الرماديّ، أفضل قليلاً من رماد محرقة أو بقايا نجم هارب، على استعداد للتوحّد بالأرض التي خرج منها. وذاك الرماد أصبح الآن بذورًا، بذورًا سوف تنمو كما نما الزرع من قبل في حقول البحيرة التي عمل فيها الجدّ وفي مزارع قريته الأولى. سيحصل ذلك في يوم ما عندما يجفّ الخزّان، وهو أمر قد يحدث مرّة واحدة، فيعود الوادي مُجدّدًا ويمتلئ بالأشجار وبالطرق المؤدّية إلى قرية أخرى سوف تحتلّ هي أيضًا مكانها في الوادي. أنا موقن من أنّ الأمر سيجري وفق أحلام جدّي فيعود المنظر الموجود هنا في يوم ما ليظهر بين الجبال كما ظهر قاع البحيرة بعد

ملايين السنوات وأتاح لجدّي امتلاك هذه الأرض. وسوف تبزغ الحياة في القرية القديمة مجدّدًا ويعود إليها الرجال والنساء الذين قرّروا تغذيتها برمادهم وأرواحهم. مثلما فعل ذلك جدّي، بعد خمسين عاما من تركه إيّاها.

حكت لي الجدّة مرّات عديدة تفاصيل رحلتها مع بقيّة العائلة إلى البحيرة والصعوبة التي واجهوها لاستعادة حياتهم بعيدًا عن هنا. ورغم ذلك، لم أفهم قطّ ارتباطها بهذا المكان والتصاقها بذاكرة أجدادها. أنا أحترم أهلي، وأرى أنّ الأفضل لهم ولأمثالهم التطلّع إلى المستقبل، إلى الزمن الذي ما يزال ينتظرني لأعيشه، وأمامي الكثير منه. هذا ما أحلم به، فأنا بعدُ صغير السن (بالأمس أكملت تسعة عشر عامًا). إنّ رغبتي في العيش قويّة، ولذا أحتاج إليهم في المستقبل، مثلما احتجت إليهم حتى هذه اللحظة. أريد الابتعاد عن الذكريات التعيسة، لا أريد أن أعيشها مثل أمّي، أو مثل جدّي وجدّتي، وكلاهما منعتهما ذكرياتهما من الحياة بسعادة. لا أعرف كيف ستكون أفكاري عندما أصير هرمًا، لكنّ الأمر الوحيد الذي أفكّر فيه اليوم وأريده، هو ألاّ أكون مثلهما.

بالطبع لن أحكي هذا لجدّتي أبدًا. يكفي المسكينة ما هي فيه. لن أنتقد تصرّفاتها وطريقتها في العيش، ولْتفعلْ بحياتها ما تريد. وهذا لا ينفي أنّها تتحمّل مسؤوليّة ما نقلته إلى أبنائها من نظرة

سلبيّة للحياة إذ كانت تقود تصرّفاتهم. فأمّي وإخوتها على حدٍّ سواء (عدا الخال أجوستين) لا يشعرون بشيء آخر غير ما يرزحون تحت وطأته من شعورٍ بالاغتراب وحزنٍ لا علاقة لهم به. نعم لا علاقة لهم به، وبالأخصّ أمّي، فقد خرجت من هنا وهي صغيرةٌ جدًّا، وتكاد لا تحمل أيّ ذكرى واضحة عمّا جرى. لذا ليس عليها أن تشعر بانتمائها إلى هذا المكان ولا أن تحزن لأنه اختفى. أتفهّم شعور أبويها أو إخوتها الكبار، لأنّهم كانوا على وعي بالآثار السلبيّة للخزّان عندما أُجبروا على الهجرة، لكن لا أفهم كيف لشخص ذهب من هنا في سنّ الثامنة -وتلك حال أمّي- أن يشعر بالتعاسة والمعاناة مثلهم. وفي جميع الأحوال، لكلٍّ أن يشعر بما يريد، فأنا لا أملك الحكم على أحدٍ، وبالذات في ما يتعلّق بالمشاعر. لكن في إمكاني مطالبتهم بأن يتركوني أعيش الحياة بعيدا عنهم، لأنّي أراهم مدمّرين لأنفسهم. ما أحتاج إليه وأرغب فيه هو الحياة من دون النظر صوب الخلف، ومن دون حنين إلى زمن مضى ومن الحسن الحظّ أنّه لن يعود. أقول هذا وأنا على علم باعتقاد جدّتي أنّ حياتها هنا كانت أفضل، ففي تقديري ذلك ليس صحيحًا وحياتها خير دليل. ترى ما الحال الذي ستكون عليه حياتها الآن لو استمرّت في العيش هنا؟ هل كانت ستعيش سعيدة وبلا ألم كما تتخيّل؟ أم العكس هو الصحيح؟ أما كانت لتبدو عجوزًا محنيّة الظهر من فرط العمل، أكثر من انحنائها

الفعليّ الآن؟ وفقًا لما قرأته وما سمعته من الناس، الحياة في هذه الجبال قاسية جدًّا، أقسى حتّى من الحياة في البحيرة، مع أنّ تلك ليست سهلة البتّة.

أعلم طبعًا أنّ جدتي لن تعترف بذلك، فالراسخ في نفسها أنّ الوادي هو الجنّة، ولسوف تنتقل إلى العالم الآخر وهي مؤمنة بهذه الفكرة. إنّه لأمر جيّد أن تُفكّر على هذا النحو، وإلاّ كيف ستكون الحياة في نظرها؟ لذا يجب أن نشعر اليوم بالامتنان لشاطئ الخزّان والمراعي المحيطة به، فهي مقدّمة لتلك الجنّة، أو لأقل لذلك المكان الذي لا وجود له، ومن المؤكّد أنّ ليس مثل العالم الواقعيّ. هكذا يمكن للجدّة أن تشعر بالهدوء، كي لا يقتلها الألم بسبب اختفاء الرجل الذي شاركته حياته وستُشاركه المصير نفسه عمّا قريب. وما أحسبها تعيش سنين أخرى كثيرة، فوطأة الأعوام السبعين التي عاشاها معًا -وهي مدّة طويلة- لن تسمح لها بالاستمرار من دونه.

فيرخينيا الحفيدة

يقولون إنّني أشبه جدّتي جدًّا. لا أعرف مقدار صحّة ذلك، لكن ثمّة أيضًا مَن يقولون إنّي أشبهه هو، وذلك لأنّ التشابه بيننا ليس في الجانب الجسميّ، بل في طريقة التعبير. حتّى أبي قال لي هذا بالأمس.

أعتقد أنهم يقولون ذلك من حزنهم على الجدّ وقد فارقهم إلى الأبد. أنا أيضًا حزينة، لكنّ حزني أقلّ وطأة من أحزانهم، فمن بين الجميع أنا الأقلّ معرفة به. لقد أمضيت معه زمنًا قصيرًا، وعندما عرفته كان هرمًا، وسرعان ما سقط مريضًا وأخذوه إلى دار المسنّين، فلم تُتح لي الفرصة لأقضّي معه وقتًا أطول، وهاهم يقولون إنّ بيننا تشابهًا كبيرًا، وإنّي الأشبه به في عائلتي.

لكن هذا لا يُشعرني بأنّي أقرب إليه من شقيقيّ، ولا حتّى من أبناء أخوالي، لا سيّما بنات خالتي المقيمات في بلد الوليد، فهنّ الأكبر سنًّا، وتعاملن معه أكثر منّا، إذ كنّا أقلّ منهنّ سفرًا لزيارته. فالمسافة بين سانتاندير وبالنثيا تمتدّ كيلومترات عديدةٍ، وأمّي لا تملك سيّارة ولا حتّى تعرف قيادتها. عندما كان أبي يعيش معنا

كنّا نذهب برفقته، لكنّه فيما بعد صار لا يذهب إلاّ نادرًا.

ما أتذكّره حتّى الآن هو الوصول إلى القرية بالباص، نستقلّه من بالنثيا، بالقرب من محطّة القطار، فنستغرق في الطريق أقلّ من نصف ساعة. بالأمس، عندما وصلت مع إخوتي بالقطار وجدنا الخال ميجيل وأمّي في انتظارنا لأخذنا بالسيّارة إلى البحيرة. وكانت قد جاءت إلى هنا قبلنا بأيّام. وكم بدا وصولنا إلى البيت حزينًا! فهناك في مطبخ جدّي لقينا أناسًا كثيرين حول جدّتي، وحالما رأتنا انفجرت بالبكاء كأنّ حضورنا قد ألهب الألم الكامن في نفسها. ما من شّك في أنّ ترمّلها في هذا العمر المتقدّم أمر مُحزن. لكن من المؤكّد أيضًا أنّه لو حدث العكس وكان جدّي هو من ترمّل لَمَا بكى هكذا، فالرجال يبكون أقلّ من النساء.

والحقّ أنّي أبكي منذ مدّة. بالتحديد منذ مات «سانسون» وها إنّه في شهر يوليو القادم يكون قد مضى على موته عام كامل. لقد عاش «سانسون» معنا باستمرار، ولذلك بكيته بحرقة حين مات، أمّا جدّي فلم أذرف لموته دمعةً واحدةً، حتّى في الكنيسة عندما كان حولي أناس كُثر يبكون.

والآن يجب أن أبكي. فأمّي غارقة في البكاء وكذلك لاورا، والجدّة وتريسا أيضًا. ومثلهنّ بنات خالي القادمات من بلد الوليد. أمّا الرجال فلا أحد منهم بصدد البكاء. لكن يبدو واضحًا أنّ الخال طوني قد بكى، فعيناه متورّمتان ومحمرّتان قليلاً،

خلافًا لعينيّ الجافّتين تمامًا، إلى حدٍّ حال دوني والبكاء رغم رغبتي فيه وسهولته على الجميع!...

ربّما سبب عجزي أنّي لست حزينةً بما يكفي، أو أنّ الخزّان لا يخيفني مثلما يُخيف أمّي، فهي تتأمّله كما يُتأمّل مكان مرعب، وأنا أراه جميلاً جدًّا والسحب تنعكس على سطح مائه والأبقار ترعى من حوله. إنّه يذكّرني بمراعي سانتاندير، مع فارقٍ ملحوظ هو عدم وجود قرى وبيوت ريفيّة فخمة، وعدم وجود بحر. صحيح أنّ الخزّان يشبهه بعض الشيء لكن تنقصه الأمواج والحركة، إذ ليس له منها سوى قليل من التموّج عند الشاطئ، عدا ذلك الماء هنا هادئ جدًّا، ويكاد يبدو ساكنًا كبحيرات المهد في تماثيل أعياد الميلاد، تلك التي نصنعها في المدرسة بالورق المفضّض. أعرف أنّ العمق تحت سطح هذا الماء يبلغ أمتارًا عديدةً، ورغم ذلك لا أشعر بالاضطراب مثل أمّي لأنّ الماء عمومًا لا يخيفني، بل هو أكثر شيء أحبّه في هذا العالم، حتّى إنّي أودّ دراسة علوم قيادة السفن عندما أكبر.

منذ رأيتُ الخزّان وأنا أتقصّى القوارب على الشاطئ، لكنّي لم أشاهد أيًّا منها. إنّه لأمر غريب، فمع وجود هذه الكميّة الكبيرة من المياه يُفترض أن توجد بعض الزوارق. يقول أبي إنّ عمق الماء في الوسط يبلغ أمتارًا عديدةً. لا شكّ إذن في وجود قوارب ولو للصيد فحسب، ولَسوف نعثُر عليها. إنْ نجدْها سيتسنّى لنا أن

نستخدمها لننثر رماد الجدّ أبعد من مكاننا هذا، هناك في الداخل، وطبعًا سيكون ذلك أفضل وأجمل. سيُتاح لنا أيضًا أن نقوم بنزهةٍ مثل بحّارة سانتاندير في أعيادهم، (تلك التي أخذني أبي يومًا إلى الميناء لأَحضَر أحدها) وعندئذ يمكن لجدّتي أن تلقي زهورها بلا خوف من أن تعيدها التيّارات إلى الشاطئ، وهو ما يحدث حين تُلقى من هنا، فتأكلها الأبقار. ومهما يكن، أحسب الجدّ لن يهتمّ بهذا، فهو الآن في السماء، خلف تلك السحب البيضاء التي تغطّي المنطقة كلّها وتنعكس على مرآة سطح الماء. نعم، لن يهمّه ما يجري مادام لا يراه. ويجب ألاّ أزعج نفسي من أجل البكاء، لأنّه لن يرى منه شيئًا، وأيضًا لأنّه يعرف رغبتي فيه. فقد أخبرته بها أمس في الكنيسة خلال القدّاس. قلت له ما في نفسي بصوت خفيض حتّى لا يسمعني أحد، وكلّي يقين من أنّه هو بالذات سمعني.

«أنا أحبّ شجاعتك!»، قال لي أبي ذلك ويده تُمسك يدي وتضغطها بقوّة. هو أيضًا ألقى عبارته بصوت خفيض حتّى لا يسمعه أحد. وفي اللحظة نفسها نثرت الخالة تريسا رماد الجدّ على الماء وشاهدناه جميعًا يبتعد عن الشاطئ ويتحرّك حركةً دائريّةً، على هيئة فقاعة من الزبد الأسود طفت لبعض الوقت ثمّ اختفت من أمام أعيننا. وإذا الجدّة التي ما انفكّت تبكي قد وقفت ساكنةً تراقب المكان مثلها مثل الخالة تريسا وأمّي، وكانتا الأقرب إليها، واحدةٌ على يسارها والأخرى على يمينها. أمّا الخال طوني فكان

خلف النساء الثلاث ومن ورائه الآخرون. ولم تمضِ برهة حتّى همس بكلمة في أذن الجدّة فاستجابت وألقت الزهور إلى البحيرة بأقصى ما استطاعت ذراعها، زهور أغلبها بيضاء، وبعضها صفراء وحمراء، وفيها حتّى البنفسجية على ما بدا لي. وبعد أن ظلّت الباقة تطفو للحظات حيث سقطت، على بعد مترين تقريبًا من الشاطئ، بدأت تنزلق في اتّجاه الوسط والدوائر المتشكّلة حولها من أثر الاصطدام بالماء تتّسع باطّراد ماضية نحو الشاطئ... وفي خضمّ ذلك تحتّم على الزهور أن تتفرّق، إذ كانت الجدّة قد حلّت العقدة الرابطة بعضها إلى بعض. وكما حدث من قبل مع رماد الجدّ غاصت رويدًا رويدًا... والغريب أنّ حركتها وهي تغطس ظلّت غير ملحوظة حتّى تغيّر الماء تحتها بتغيّر العمق فطفت مجدّدًا وعاودت الانزلاق في اتّجاه وسط الخزّان، وكلّ أفراد عائلتي يواصلون النظر إليها من دون أن يتحرّكوا من أماكنهم، وما كان أحد ليجرؤ على فعل ذلك. حتّى الخال أجوستين الذي دأب أن يتحرّك على هواه وقف بعيدًا عن الآخرين ناظرًا إلى الماء كأنّما هو يقف وحيدًا. تُرى فيم يفكّر، لو أنّه فعلاً يفكّر في أمر ما؟

«هكذا سوف يكون سعيدًا إلى الأبد»، وشوش لي أبي ذلك في أذني من دون أن يعرف أنّي بصدد تخمين ما يفكّر فيه الخال أجوستين.

أجوستين

«هناك طرائق متعدّدة للنظر إلى الماء، طبقًا لما يبحث عنه كلّ واحد». هو من قال لي ذلك مرارًا.

كان يعرف كل شيء عن الماء، وعن الهواء، والأرض... يعرف على سبيل المثال، متى تمطر فيقول: «سوف تمطر»، وتمطر. لم يخطئ قطّ... كلاّ أخطأ مرّةً واحدةً، وذلك حين أنبأنا بعاصفة لكنّها لم تأتِ بالمطر بل جاءت جافّة فأحرقت المحصول الذي كان عندنا خلال فترة الدريس. سقط شعاع وأحرق كلّ شيء، حتى الدرّاسة نفسها فاضطررنا لشراء واحدة أخرى.

هو أيضًا من علّمني طرائق النظر إلى الماء، وهو من علّمني غير ذلك، منذ بدأت أشبّ، علّمني جلّ ما أعرفه الآن، أكثر بكثير ممّا علّمتني إيّاه أمّي، فهي علّمتني أشياء قليلة. كلّ ما تعوّدَت فعله هو تأنيبي، من حسن الحظّ أنّها الآن في دار المسنّين. أمّا هو فكان يقول لي: «استعدّ، سوف نذهب إلى العمل». وخلال الطريق يخبرني بما سوف نفعله وفي أيّ حقل وبكلّ التفاصيل تقريبًا ثمّ ننفّذها من بعدُ حرفيًّا. كنت أترك نفسي له ليقودني. ترى ما الذي

كان في وسعي أن أناقشه فيه وهو يعرف كلّ شيء؟

أتذكّر، على سبيل المثال، ذلك الشتاء الذي انخفضت فيه درجات الحرارة إلى حدٍّ غير مسبوق حتّى إنّ الثمار تجمّدت على الأشجار وماتت من شدّة البرد، ولم يعرف الناس ما عليهم فعله، ثمّ وجد أبي الحلّ: إشعال النيران إلى جوار الجذوع لتسخين عصارتها. وبفضل فكرته أنقذوا معظمها. أيضا في عام آخر عندما أكلت اليرقات عيدان عباد الشمس، هو من قال على الفور «يجب تسميمها بمادة معيّنة» ثمّ ذهب إلى «بالنثيا» لإحضارها. وهكذا أنقذ المحصول.

أمّا أفضل ما يعرفه فعن المواشي. لقد امتلك الأبقار طوال حياته، حتى إنّه تاجر بها منذ كان شابًا، ولذلك عرف عنها كلّ شيء مثلها مثل الخنازير والأغنام. لم نقتنِ في البحيرة أغنامًا قطّ، واكتفينا باقتناء الأبقار والخيول، وأفضلها جميعًا هو «سانسون»، فمن فرط قوّته كان يجرّ العربة وحده! وحتّى ونحن لا نملك أغنامًا كان أيّ جار يواجه مشكلة ما مع غَنَمِه يُسارع باللجوء إليه هو لأنّه من بين جميع الأهالي في البحيرة أكثرهم خبرة بالأمراض مهما اختلفت أنواعها، يكفيه أن ينظر إلى الأغنام ليعرف أيّ مرض أصابها.

حتّى الأشخاص كان يسبر أغوارهم على الفور. إذا قال عن شخص إنّه لا يحبّه سرعان ما يَثْبُتُ أنّ حكمه صحيح. والعكس

بالعكس، إذا قال عن شخص إنّه أمين فهو حتمًا كذلك. لذا ما انفككتُ أطيعه، حتى بعد انتقاله إلى دار المسنين. وإذا عنّ لي عمل ما، أقوم به كما يحبّ هو القيام به. وسوف أظلّ أفعل ذلك، وبثقة أكبر منذ الآن، لأنّي أعرف أنّه لم يمت تمامًا. عرفتُ هذا صباح اليوم، عندما رأيته جالسًا في الحظيرة إلى جوار حاوية الأدوات الزراعيّة. لكنّي لم أخبر أحدًا بالأمر كي لا يُظَنَّ بي أنّي مخبول.

في جميع الأحوال أنا لا تعنيني آراؤهم فيّ. أعرف أنهم سوف يذهبون هذا المساء وأبقى وحدي في البيت، مثلما أعرف أنّي لن أطلب مساعدةً من أحدٍ لتنظيم حياتي إلّا منه هو. سوف نظلّ ننظّم بيتَنا وحياتَنا سويًّا ما لم تأتِ أمّي لزيارتنا، وأرجو ألاّ يتواتر قدومها. ليس لأنّي لا أحبّها، فأنا أحبّها حقًّا، بل لأنّي لا أحبّ تلقّي أوامرها باستمرار. «افعل هذا، افعل ذاك، اذهب إلى ذلك المكان، اذهب إلى المكان الآخر»، ذاك حالها طوال اليوم. يا لها من حياة طيّبة بدأتُ أعيشها وحيدًا منذ ذهبا إلى دار المسنّين! بغضّ النظر عن افتقادي حضوره هو وتذكّري إيّاه مرارًا لفرط ما كنّا معًا طوال النهار، وبالأخصّ منذ رحل طوني لأداء الخدمة العسكريّة في برشلونة (أنا لم أؤدّها، لأنّ أبي لم يتركني أذهب). نعم منذ رحيل شقيقي صرنا أنا وأبي شبه متلازميْن في كلّ ساعة وفي كلّ مكان، عدا في البيت، فهناك تنتظرنا أمي عند عودتنا من الحقول أو من أيّ مكان آخر. وفي تلك الفترة كانت تريسا قد

تزوّجت وفيرخينيا قد ذهبت تدرس في «بالنثيا» لتصبح معلّمة. لكنّهما ظلّتا تأتيان لزيارتنا من وقت إلى آخر، لا سيّما فيرخينيا، حتّى تزوّجت هي أيضًا. وباستثناء زياراتها تلك في الصيف وفي أعياد الميلاد، كنت أقضّي بقيّة الوقت وحيدًا مع أمّي وأبي، أي الوقت كلّه تقريبًا. هكذا عشنا ثلاثتنا حياة سعيدة، أنا وأبي نعمل في الحقل وأمي تعتني بالبيت وبمواشينا القليلة في ذلك الوقت. وعندما قال طوني إنّه لن يعود، باع أبي الأبقار وأبقينا على واحدة فقط من أجل الزراعة. فأنا وهو كنّا كافيَيْن للعناية بالأرض وتحصيل ما نحتاج إليه نحن الثلاثة للعيش. بعد ذلك عندما تقدّم بهما السنّ، حتّى الأرض تركناها، إذ لم يكن في وسعي القيام بكلّ المُهمّات. ولِمَ علينا أن نعمل كثيرًا؟ لقد كانا يتلقّيان جرايتيْ تقاعدهما، وهو مبلغ يكفينا نحن الثلاثة ويزيد.

يقولون إنّني سوف أستفيد من جراية أمّي، هذا ما أخبرني به ميجيل، وأعادته على مسمعيّ تريسا صباح اليوم. وهو أمر لا يعنيني كثيرًا، فما معي يكفيني للحياة ويبقى منه، ولست في حاجة إلى أكثر من ذلك. حتّى من أجل التبغ والقهوة لديّ ما يكفي من المال وأكثر. أمّا الأكل فلن ينفد أبدًا مادامت تريسا تأتي كلّ ثمانية أيّام وتجلب معها طعامًا يكفي ثمانية أيّام أخرى. فأنا لا أُجيدُ الطبخ، لأنّ أمّي لم تعلّمني إيّاه وأيضًا لأنّ أبي لم يدعني أتعلّم. كان يقول إنّ المطبخ من شؤون النساء. لو تعلّمته لأفادني ذلك

جدًّا وجَنّبتُ تريسا عناء الذهاب والإيّاب كلّ ثمانية أيّام، وعندئذ يتسنّى لي أن أعيش في سلام. ففي كل مرّة تظهر فيها شقيقتي تُحدث ثورةً في البيت، وفوق ذلك تؤنّبني مثلما تفعل أمّي تمامًا، لأنّني بحسب وصفها «أحوّله إلى حظيرة خنازير.»

أمّا هو فعلى النقيض منهما، لم يؤنّبني قطّ. حتّى عندما كنت طفلاً، في ذلك العمر الذي جرت العادة أن يؤنّب فيه الآباء أبناءهم لأيّ سبب. وحتّى عندما انقلب بي الجرّار. وكان دأبه أن يتركني أقوده على الطرق وفي بعض الحقول من حين إلى آخر. وفي تلك المرّة لم أنفّذ كلامه وأسرعت أكثر ممّا يجب ثمّ حاولت كبح الدولاب فانقلبنا، ومن حسن حظّنا أن لم يُصب أيّ منّا بأذى، ففي العام الماضي مات رجل في «فياومبراليس» بسبب حادث مشابه. ولمّا كُنت أعلم ذلك اعتقدت أنّه سوف يؤنّبني، لكنّه بدلاً من تأنيبي سرعان ما نهض عن الأرض وجاء ليطمئنّ عليّ ويتأكّد من أنّي بخير، وعندما وجدني لم أصب بأذى، وأيقن عدم حدوث ضررٍ لأيّ منّا، وضع ذراعه على كتفي وقال لي: «سوف نحتفل بسلامتنا في الحانة». ثمّ جاء أحد الجيران بجرّاره وساعدنا على رفع جرّارنا.

ما سأظل أؤكّده أنّ أبي لطالما أحسن معاملتي. ولذلك أنا أحبّه أكثر ممّا أحبّ أمّي. طبعًا هي أيضًا أحبّها، مثلما أحبّ إخوتي، وأبناء إخوتي، لا سيّما أولئك الذين يعيشون في بلد الوليد، لأنهم

يزوروننا أكثر من البقيّة. لكنّ حبّي الأكبر له هو، وكلّي يقين أنّه يحبّني أكثر من أيّ شخص آخر. لم يقل لي ذلك ولو مرّة، لكنّي أعرفه من كثرة أحاديثنا؛ فقد قضّيت معه أكثر ساعات حياته قبل أن يرحل إلى دار المسنّين. وحتّى هناك كان عند زيارتنا له يتحدّث إليّ أكثر ممّا يتحدّث إلى الآخرين، ولو بينهم تريسا، وهي المُفضّلة لديه من كلّ إخوتي، لأنّها بحسب قوله مثل أمي، تنظّم له الحياة باستمرار.

أمّا أنا فمن دواعي سروري ألاّ أحد ينظّم لي حياتي. والحقّ أنّ عيشي وحيدًا جعلني أملك حياتي وأفعل بها ما أريد. أغلب الناس يعتقدون أن الوحدة أمر محزن جدّا، لكنّهم مخطئون، فأنا سعيد للغاية. وهذا لا ينفي أنّني سأشعر بسعادة أكبر لو أنّه معي، فأظلّ وإيّاه وحدنا، من دون أمّي، كحالنا حينما كانت هي في المستشفى وبقينا وحدنا أسبوعًا كاملاً. يا لتلك الأيّام السعيدة التي عشنا!

من حسن الحظّ أنّنا سوف نعيش على هذا النحو: هو هنا وأنا في بيتنا، وسوف نزداد تآلفًا. فقد قال لي صباح اليوم قبل أن أركب السيّارة: «أنا ذاهب، لكنّي سأكون معك كلّما احتجت إليّ». أعلم يقينًا أنه سوف يفعل، فالمعهود منه أن يفي بوعده. وحين سمعت قوله هذا الصباح خطر لي أنه حافظ على عادته منذ كان تاجر أبقارٍ. في المدن أغلب الناس ليسوا ثقات، (فهمتُ هذا من

حكايات إخوتي وبعض أبنائهم) وكذلك بعض الناس في البحيرة، جيراني على سبيل المثال، أمّا هو فرجل يحافظ على كلمته. لذا ليس لدي شكّ في قدومه كلّما اقتضى الأمر ذلك، سيظلّ يجيء باستمرار كلّما احتجت إلى نصيحة منه، أو شعرت بالوحدة، حتّى عندما أشيخ، فهو لن يزداد هرمًا، بل سيبقى كما أعرفه، وكما رأيته هذا الصباح قبل أن أركب السيارة، وكان وقتئذ جالسا في ركن من الحظيرة، على صندوق أدوات الحقل.

إنّه مكانه المُفضَّل، لا سيّما في الشتاء. فعندما تنقطع الأعمال في الحقل لأنّ الأرض تكون محترقة بالثلج، يُمضي الساعات في ركنه ذاك، ناعمًا بقليل من الدفء، يُصلح أداةً أو يُعِدُّ بعض ما سيلزمه عند مجيء الربيع. هو لا يحبّ الجلوس في المطبخ لأنّ الحرارة المتأتّية من النار تُصيبه بالنعاس. لقد قال لي ذلك مرارًا. وفي أحد أيّام الشتاء تلك حكى لي عن فالنتين، أخي الأكبر الذي مات مبكّرا وما تزال أمّي تبكيه حتّى الآن رغم مرور ستّين عامًا على موته وربّما أكثر، وفي مرّة أخرى اعترف لي بما يريد منّا فعله بعد موته، وهو ما جرى قبل لحظات. قال لي يومئذ إنّه أفشى لي سره الأكبر، وطلب منّي ألاّ أحكيه لأحد فالتزمتُ. لكن يبدو أنّ أمي علمت بالأمر، أو لعلّه أخبرها به هي أيضًا عندما شعُر باقتراب موته. فأنا لم أُذع السرّ لأحد. ولا حتّى بعدما عرفتُ أنّ أمّي اطّلعت عليه وأخبرت به إخوتي في المستشفى حين بدا أبي على

وشك الموت. من الأفضل ألاّ يعرف أحد ما تعرفه أنت، وهكذا تتجنّب المشكلات.

ما أتذكّره عن اليوم الذي حكا لي فيه أبي سرّه أنّه كان بعد مُغادرة إخوتي البيت، ولعلّه تعمّد ذلك كي لا يعلم بالأمر أحد غيري. أذكر أيضًا أنّنا كنّا وحدنا نُصلح دولاب الجرّار وبينما نحن كذلك سألني فجأة عمّا إذا في وسعي أن أحفظ له سرًّا، فأجبته بنعم، ومع أنّه لم يُبدِ اهتمامًا بإجابتي فعَلَهَا واعترف لي بأنّه يريد منّا أن نأتي به بعد موته إلى الخزّان، وبالتحديد إلى أقرب مكان ممكن من موقع القرية التي وُلدنا فيها، ولم يبقَ منها شيء، ولا حتّى الذكريات. أو بالأحرى لم تبق لي أنا منها ذكريات ذات قيمة. فقد رحلتُ عنها وأنا بعدُ طفلٌ صغيرٌ وكلّ ما أذكره منها مجموعة من الأشجار كانت تغطّي المكان الذي نقف فيه الآن، وكان جزء منها غارقًا في مياه الخزان.

وفي يوم آخر بعد ذلك بمدّة، مضينا أنا وهو نتنزّه إلى جوار قناة ريّ، فعلّمني الطريقة المثلى للنظر إلى الماء. وأفهمني أنّه لا يُنظَرُ إليه من جميع الناس بالطريقة نفسها. قال لي: «البعض لا يرون فيه سوى الغاية منه، كأن يكون صالحًا للشرب أو لريّ الأرض، أو ليُباع في الصنابير مثلما تفعل به شركات كثيرة، وثمّة آخرون ينظرون إليه ولا يتمعّنون فيه عند مرورهم بقرب أحد الأنهار، أو بالقرب من بئر أو حتّى بالقرب من بحيرة. أمّا نحن

فعلينا أن نرى الماء بطريقة أخرى. نحن لا نستطيع أن نتأمّله بلا احترام بعد ما عناه لنا، ويجب ألاّ نَقلّل من شأنه كما يفعل آخرون، أولئك الذين يُسرفون في استهلاكه من دون أن يستخدموه لأمر مفيد لأنّهم يجهلون قيمته.» وعندما كان يتحدّث إليّ ما انفكّ ينظر إلى ماء القناة وهو يجري منطلقًا من حقل إلى آخر في ذلك الصباح، ولا أحد يسطو عليه عدا الطيور، تنهل منه خلال طيرانها من دون أن تتوقّف لتنظر إليه مثلنا. وأحسب الوقت كان ربيعًا، لأنّ السماء بدت صافيةً وزرقاء كحالها صباح اليوم.

منذ ذلك اليوم وأنا أنظر إلى الماء وفق ما قاله لي: باحترام وحبّ، لأنّي مدين له بحياة أجدادي. ولَكَمْ صار يؤلمني أن أرى أناسًا يلقون فيه بأشياء تعكّره أو يسيئون استخدامه، مثلما كان أبي يؤلمه ذلك. وما أكثر المرّات التي غضب فيها ممّن يفعلون تلك الأفعال. حتّى إنّه ذات يوم اشتبك مع صيّاد من «بالنثيا» عندما اكتشف أنّه يلقي الأسماك النافقة في قناة الريّ. ومن حسن الحظّ أن جاء رفاق آخرون وفصلوا بينهما، فقد كان أبي غاضبًا جدًّا وأنا لم أجرؤ على التدخّل بينهما لأنّي لستُ شجاعًا مثله، بل سُرعان ما أجبن إذا غضب منّي أحد ما.

ومن حسن حظّي أنا أنّ أبي كان يدافع عنّي في كلّ الأمور. وأرجو أن يواصل دفاعه عنّي، فأنْ يقول الواقع إنّه ميت لا يعني ألاّ يستطيع مواصلة الدفاع عنّي كما فعل باستمرارٍ حتّى الآن.

أعرف أنّي استطيع الاعتماد عليه، كلما احتجت إليه. سوف أناديه وألتزم ما يأمرني به، كما فعلت ذلك عندما علّمني الطريقة المُثلى للنظر إلى الماء. ولسوف أُلقي بحجرٍ في أيّ ماءٍ فيسمعني هو، وذلك لأنّ مياه العالم كلّها مُتّصل بعضها ببعض على ما يبدو، من الأنهار إلى ثلوج الجبال، ومن ثلوج الجبال إلى المحيطات. فعندما تلقي بالحجر إلى قناة ريّ ويتضاعف صداه تجري موجات في مياه العالم كلّه، من إسبانيا إلى أمريكا ومن أمريكا حتّى اليابان. وتبعًا لذلك من يريد أن يسمعها سوف يسمعها، أينما كان مكانه، سواء في بركةٍ أم في خزّانٍ مثل هذا، أم في البحر، ولعلّ بعض البحّارة هناك ينظرون إلى ما شكّلته أمّي من دوائر عندما ألقت إلى الماء بتلك الزهور التي جاءت بها من البحيرة. فمن الممكن الآن رؤيتها في وسط الخزّان، وكأنّما هي تاج جديد يُكلّله.

أتذكّر أنّي وأنا طفل كنت أحبّ اللهو بإلقاء أحجار خفيفة صوب الماء بحركة أفقيّة، وكانت الأخفّ منها هي الأفضل عندي، لأراها وهي تقفز من دون أن تغطس، وتصل أحيانا حتّى الشاطئ المقابل. سواء صوّبتها نحو نهر، أو بركة راكدة، أو بحيرة. وما أكثر المرّات التي لفت فيها الماءُ نظري، ربّما بسبب ما حكاه لي أبي فيما بعد، عندما كبرت. إذ مضى وقت طويل من دون أن يحكي لي ما حدث في القرية مسقط رأسه، تلك التي تبكيها أمّي في بعض الأحيان كما يُبكى إنسانٌ. أنا أيضا أراها كذلك، إنسانًا

مثل فالنتين، شقيقي الذي مات مبكّرا. عرفت ما جرى في قريتنا لّما جئت إلى هنا مع أمّي وأخي طوني في الربيع. أمّا هو فرفض المجيء معنا وبقي في البحيرة، ثمّ تكرّر رفضه بتكرّر قدومنا إلى هنا. وعندما سألته في أحد الأيّام عن السبب قال لي إنّه يفضّل الاحتفاظ بصورة القرية التي كانت من قبل، كما يفعل مع الناس حين يموتون: يرفض رؤيتهم موتى ليُحافظ على صورهم وهم أحياء. وطبعًا تفهّمت موقفه، صرتُ أفعل مثله تمامًا: أرفض أن أرى الأشخاص بعد موتهم، لا لأنهم يصيبونني بالخوف، بل لأنّي أريد أن أواصل رؤيتهم أحياء. ولذا رفضتُ النظر إليه عندما قالت تريسا إنّه مات (كنتُ خارج الغرفة وهي داخلها، ولم تلبث أن خرجت باكية لتخبرنا بالنبأ) وللسبب نفسه أشحت بوجهي منذُ قليل حالما فتحَتْ القارورة الجنائزيّة لتنثر رماده. أفضّل أن أراه حيًّا إلى الأبد، كعهدي به حين كنّا نذهب معًا للحرث، هو يقود الجرّار وأنا إلى جواره، أو كحاله ونحن نسير في الطرقات، أو كما رأيته صباح اليوم قبل الحضور إلى هنا، لّما ودّعني من مكانه المألوف، عند الركن الذي يوجد فيه صندوق أدوات الزراعة...

«هل نذهب؟» أعتقد أنّه قد حان وقت الذهاب. ها إنّ تريسا بدأت السير في اتّجاه الطريق الرئيسيّ، ماضيةً إلى حيث تركنا السيارات، وهي تُسندُ أمّي وفيرخينيا تُساعدها على ذلك، وقد أمسكتاها كلّ واحدة من ذراع، وخلفهما يسير أخي طوني مع

إيلينا الممسكة بذراعه كدأبها دومًا. أمّا دانييل وخطيبته، فكلٌّ منهما يسير بعيدًا عن الآخر. أغلب الظنّ أنّهما يشعران بالخجل من شبك ذراعيهما أمام الآخرين. ورويدًا رويًا، بدأنا جميعًا نسير نحو الطريق، ومع أنّه لا يُرى من هنا يمكن التنبؤ بوجوده بسبب المنحدر القريب من بداية المنحنى الصاعد نحو المنصّة، تلك المطلّة على الخزّان... «هل نذهب يا خال؟» سألتني راكيل قبل أن تذهب هي أيضًا. يبدو لي أنّها قد عاودت البكاء، فعيناها مليئتان بالدموع.

سأنتظر حتّى يبتعدوا جميعًا. أريد أن أبقى معه وحدي لأودّعه كما يستحقّ. أعرف أنه سوف يبقى معي، لكنّي لن أراه حتّى أعود إلى هنا. وربّما يمضي وقت طويل قبل حصول ذلك. أيضًا لا أريد أن يسمع إخوتي ما سوف أقوله له، فقد يظنّوني فقدت عقلي. هم لا يفهمون أنّي وأبي كنّا نتحادث وهو حيّ فماذا لو قلتُ لهم إنّه الآن سوف يسمعني حقًّا؟! لذا من الأفضل ألا يسمعوني وأنا أحادثه وسأدعهم يعتقدون أنّي أنظر إلى الماء (كأنّما لم أنتبه إلى ذهابهم في اتّجاه السيارات)، لطالما قالو عنّي إنّي لا أفهم الأشياء المجرّدة كما هي وإنّ ذهني يبدو في مكان آخر. والآن أدعهم لاعتقادهم وهم يبتعدون عن الشاطئ، لكنّهم سوف يسمعون صوت الحجر الذي جئت به من البحيرة حين يقفز على الماء، وإنّما أفعل هذا كي لا ينسى أبي أبدًا مكاني ومكان بيته.

سائقو السيارات

- ماذا يفعل هنا كل هؤلاء الناس؟ عندما كنت في الأعلى سالكًا الطريق إلى هنا لم ألحظ وجودهم.

- يمكن رؤية بعض الناس في الصيف، لكن الآن...

- ربّما هم سيّاح. هذا ما يبدو من أرقام سيارتهم.

- إنّهم محظوظون، فالخزّان ممتلئ تمامًا والطقس اليوم رائع.

«كل هواء هذه المنطقة ينحسر ليصبح قليلاً جدًّا:

الجبال في أعماقه، والطريق متعرّج وسفح الجبل يبقى في المواجهة...»

خوان بينيت

خوليو ياماثاريس

طرائق مختلفة للنظر إلى الماء

أحدث ما كتب روايـة «طرائق مختلفة للنظر إلى الماء» أحدث ما كتب الإسباني خوليو ياماثاريس من أعمال روائية، وتعد امتدادا للشكل الروائي الذي استخدمه من قبل في روايته «المطر الأصفر» التي صدرت من قبل في أربع عشرة طبعة في لغتها الأصلية، وصدرت في أربع طبعات باللغة العربية، بالإضافة إلى لغات أخرى، واستكمالا لرؤية الكاتب للقرى المندثرة في إسبانيا، سواء بهجرة أبنائها أو تهجير سكانها بشكل قسري، تأتي هذه الرواية الجديدة لتسجل مأساة قرية أُجبر سكانها على مغادرتها لتغمرها مياه أحد السدود الضخمة لحجز مياه الأمطار وتوفير طريقة للحفاظ على إمداد السكان بالمياه والطاقة في حال شح تلك الأمطار الموسمية التي تخضع لأهواء الطقس.

تبدأ أحداث الرواية على حافة بحيرات السد العملاق حيث تقف عائلة الجد «دومينجو» لتودع رماده في آخر مشهد لعودته إلى قريته التي أجبر على الهجرة منها قبل ما يزيد عن نصف قرن، مشهد يجمع الموت مع الحياة. يشارك الجميع في سرد الأحداث، كل من وجهة نظره، من أول الجدة حتى أصغر الحفيدات التي لا تعرف شيئا عن تلك القرية سوى ما سمعته من حكايات الكبار.

المترجم

ISBN: 978-603-91708-3-9

9 786039 170839

WWW.PAGE-7.COM